مرام شهاب

الشجرة النادرة

دار الجنى للنشر والتوزيع

obeikandl.com

الشجرة النادرة

مرام شهاب

maramshehab@yahoo.com

الطبعة الاولى 2014

دار الجندي للنشر والتوزيع – القدس

- 0097022340035-info@aljundi.biz

www.aljundi.biz

مراجعة وتدقيق:

صورة الغلاف:

تصميم الغلاف: اسامة سلهب

ISBN:978-9950-383-64-7

جميع حقوق الطبع محفوظة ، ولا يسمح بإعادة إصدار أو طباعة أو ترجمة هذا الكتاب أو جزء منه دون إذن أو موافقة المؤلف والناشر.

(كل ما ورد في هذا الكتاب لا يعبر بالضرورة عن رأي دار النشر)

All rights reserved, no part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the author and publisher.

obeikandl.com

مرام شهاب

الشجرة النادرة

obeikandl.com

obeikandl.com

الإهداء

أهدى عملي المتواضع، هذا
إلى روح والدي الكريمين،
ولزوجي العزيز، ولكل من
دافع واستشهد على ثرى
القدس الشريف خاصة
وفلسطين عامة، ولكل صاحب
فكر خدم أمته العربية
والإسلامية والإنسانية جمعاء.

obeikandl.com

obeikandl.com

مقدمة الكتاب

الحمام لا يحمل السلام بالغبار والرماد، ولكنه يحمل الرسائل بالخط الدقيق، فإذا لم يكن الخط دقيقاً رفرف بجناحيه وأثار الغبار بسرعتهِ وحرصه، وهنا إجابةً عن سؤال رافقني منذ أيام الطفولة، والسؤال: لماذا يسكن الحمام في السوق المظلم؟ ولعل الإجابة تكمن في أنه يبحث عن خيط نهار دقيق واضح في الظلام.

وينجح الخط مع داني، فهو قد اعتاد أن يقارب بين الشيئين، ويناسب بينهما، بحسب ما يلائم كل منهما و يوجهما الوجهة الصحيحة، وبعد التأمل والتدقيق والتمحيص والصبر يصل الإنسان إلى مبتغاه.

ولقد اخترت مكان قصتي ومسرحها «القدس الشريف»،

فمدينة القدس، هي المدينةُ المقدسةِ التي حازت على العديد من الأسماء. لقدسيتها وأهميتها في موروثنا الديني والتاريخي والحياتي, فعندما أراد الله –سبحانه وتعالى– أن يجعل له في الأرض خليفة أورثنا من

فضله الأرض المباركة, التي بارك فيها وحولها, وهي الجامعة التي جمعت في ظلها جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في ليلةٍ إسراء أسرتهم وأطلقتهم بنداء واحد للصلاة والإعلام بالشيء. فهي وهي المبعث وهي الشجرةُ النادرة بجذورها وقديمها إلى عصرنا هذا، وقال تعالى في كتابه العزيز: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة: 3].

والإكمال والكمال يتجدد كل يوم, ويتجدد بدخول غير المسلم في دين الله, فكل يوم يكتمل بشهادة أن لا اله إلا الله وان محمدا رسول الله, إذ شعار ليلة الإسراء النداء, لذلك يبقى النداء قائما وذلك من شعائر الله، إن هذه الشجرةِ التي لن تموت بعونه، وستسمو سمو شجرتنا النادرة، أغصانها تأبى كل ما تهدمه يد احتلال وستحرر القدس بالتسخير والتحرير، والتحرير قائم على الاستقامة, وهو مبدأ، فيمحو الله ما يريد من أسماء مهوَّدة وخطط مدبرة.

فلن ينمو «فرنك» غرس في أرض طاهرة لا يروى

بماء، فهولا ساق له كي ينمو ولا أوراق ولا جذور, لكن الفرنك يغذيه فرنك, ويمده بدعم بالأموال وينمو في صندوق محيط, فيصبح للفرنك خزينة، وللحَجَر قرية، ولقد أسميته «فرنكاً» لأن الشاقل عملة فلسطينية عربية كنعانية.

فالأفكار تنجح بمقاربة الفكر بالفكر، كذلك بإتباع سبل المقارنة حين نتمكن من التمعن بالوجه الحسن، فوجهة القلوب القدس والتمعن بالصورة يؤدي إلى قراءة صحيحة، فإن النجاح بالتقارب مرتبط بالجمع، عندما نجمع من كل زوجين أثنين كما في سفينة نوح.

وقد حاولت «في الشجرة النادرة» وهي شجرة وحيدة زمانها وعصرها أن تأتي بالأفكار، وقاربت بينها بشخصية تمثل مجموعة الأفكار, ضمّنتها هذا الكتاب، وهناك مجموعة من الموضوعات والأفكار سوف أعمل – بحمد الله– على استكمالها بعد التفرغ من كتابي هذا، تحمل عناوين، منها: الحجر لا يموت، سلمية المقاومة، الفرنك أول من ساهم

في دعم المستوطنات، تغيير المفاهيم، تصحيح الأخطاء، التغيير، الخطوة الصحيحة، التركيز على بناء شخصية الإنسان، لماذا نُعاقب الحب ولا نعاقب الكراهية؟، العنصرية تبدأ بفصل الرحم وتنتهي بمعركة، لا يكتمل النضج عند الإنسان من الطفولة وحتى الشيخوخة دون المرور بالكشف والبحث والعديد من التجارب.

وآفة العلم النسيان وفي التذكير نفع فإن في التفرقة شتات وتقطيع أوصال يؤدي إلى انفصال, إذ لا ينجح اتفاق مبرم على النفاق، وقبل أي اتفاق علينا أن نعرف ماذا نريد, فعندما نعرف يصبح ما نريد متفقاً عليه.

ودوما أردد وأقول:

اكتبْ الأيام ككاتب العدل، ما أتى حينٌ على الدهر غيركَ كاتبها، فمن تعجلها ولم يحتسب أخباره آتية بحالها وأحوالها، كالأرض والسماء أتت الرحمن طوعا، ما الحزن أعجاز نخلٍ خاوية، لا تصمد بفراغها فهي إلى الأرض هاوية، التاع الثعلب أَنْ

أدركتَ فيه خبثا، لم تؤذِ اللئيم وأن سكنه الخبثُ، وما مَدحت بالثناء نفسا، ما تداعت عليك الأعضاء سهراً وحمة، ولكن تداعت حينما ضربت بالأرض فأسا، في وضح النهارِ، وعصر أمةٍ، غرفت فشربتَ من حوضكَ قُدسا، فإن جَرَّموكَ قل ما عصيت لله أمراً، وكنتُ لكم بالآفاق قمراً وشمساً.

obeikandl.com

ياقدس

قرة عيني القدس، أنت الحقيقة بفكري كالشمس ساطعةً ما داهمها الاحتلال، لم تحطمني معاول الحفرِ خابت، فعنوانك مصطلحي، والمصطلح غد، كل من فيكِ جالس، وحولك حارس، بإصرار الدهر على الوعد، بإصرار تغلب السنابل الخضر على الهشيم اليابس، تخاصمت لغات العالم بلغة الضاد، فمن لا يتقن ترجمة الود فسرها بالدرد، يا قدس، يا بيت الكريم، وأول قبلةٍ، اتخذنا من التقوى لأنفسنا زاداً، العمل يجري على قدم وساق، فالقدم ثابت والحجارة من طين، فلا غرابة أن تجد بين الحجارة معدن، خلقت الأرض ومنها المنافع كالحديد، حملت الدنيا ببطنها سواسية، وولدت فوق الثرى و تحتها ملوك وعبيد، ملكنا الوسائل كي نُسافر، فلما أسفرت عن قولنا ضربنا بعرض الحائط وهربنا إلى الزمن البعيد، تتطور العلوم وقد امتثلنا، الكبش تهجَّن والنعجة بخلق جديد، ولما عرفنا للبيت مكانته، صار البيت إلى عنوان بعيد.

سُرقت عروبتي، اسرق أيها الغاصب مني كلمة ،اسرق مني حرفاً، فالحق لا بد أن يعود، وزِّع كل أدواري، استبدلني بالصمت، تجاهلني مئة عام بل تجاهلني ألف سنه، يكفي أيها المحتل أن تشهد لي بالخوف، فما ضاع حق وراءه مطالب.

obeikandl.com

الفصل الأول

obeikandl.com

الشجرة النادرة

(1)

داني ابن الخمس سنوات كان يلعب في الحديقة المُجاورة للمنزل, فعثر على قطعه نقدية غريبة, لم يرَ مثلها من قبل، فرفعها عن الأرض وأغلق عليها بكف يده ثم ركض مسرعا إلى والده وطلب منه أن يصطحبه إلى الحانوت، وهو يقول له: لقد وجدت قطعه نقود سوف أشتري بها أغراضاً عديدة، وأخذ يعدد الأغراض, التي سيشتريها بهذه القطعة النقدية التي بدت له ثمينة، استغرب والد داني الطلب، وأصبح لديه فضول لمعرفه هذه القطعة، ثم قال: دعني انظر إليها يا داني، لكن لم يكن الطفل مُتأكداً من القطعة، فجعل يده خلف ظهره وأبدى شيئاً من التردد، عندها بدا واضحا التعجب على ملامح وجه أبيه، فتح كفة يده بحياء ورفع يدهِ رويداً أمام والده عندها انفجر والده ضاحكاً أمامه.

داني يقف ويحدق بوالده، ومتعجب من ضحكاته، وفي ذهنه كان يقول: إلى هذا الحد هذه القطعة مضحكة يا أبي؟ وحاول أن يتطرق إلى بعض الأسئلة لكن والده المشغول بالعمل لم يعطه الفرصة لطرح الأسئلة مكتفياً بالقول: هذه القطعة لا قيمه لها، فهي منتهية الاستعمال وتدعى (فرنك) وتستطيع أن تلعب بها أو تحتفظ فيها، داني بعد أن استمع لوالده شعر بعد الفرحة والحماسة بشيء من الخيبة حيال الأمر، فخرج من المنزل، وهو ينظر إلى الفرنك بكفة يده، ومشى مسافة طويلة وهو يفكر فيها، غير مقتنع بكلام والده غير المتوقع، بحيث أن المفهوم الصحيح والرد المتوقع لداني عندما يعثر الأفراد على قطعه نقدية ينتابهم الفضول لمعرفة مفاهيم أوضح حول القطعة، فهناك في بعض العادات المعروفة يجد الأفراد العديد من الأشياء المهمة، وليس شرطا أن يبحثوا عنها، مثل قطعه نقدية أو خارطة طريق، أو صفحات من بعض الكتب فيها قصص نادرة.

(2)

لا زالت القطعة النقدية بكف يد داني تعكس له فكره لامعه بصور إيجابية عن شيء فريد من نوعه له قيمته، لكن الإجابة غير المتوقعة من والده جعلت داني يمشي ويفكر حتى أصبح مبتعداً عن المنزل، وهو يبني حول القطعة مفاهيم عديدة، فمنذ أن وجدها رتب فور وجودها مجموعة مفاهيم متنوعة في مخيلته، وبعد أن قطع داني مسافةً طويلةً وشعر بالتعب جلس يستريح، فوجد على جانب الطريق رجلاً عجوزاً يحمل بيده شتله ليغرسها بالأرض، وبيده الأخرى مجرفة عتيقة من الخشب يحفر فيها، فراقب داني ما يقوم به الرجل المسن العجوز، واقترب منه وألقى عليه التحية.

استغرب الرجل العجوز وجود طفل صغير بمنطقة جبلية بعيدةٍ عن منازل القرية، فقال له: ماذا تفعل هنا أيها الصغير؟

فأخبره داني بما حصل، قائلاً: وجدت في يدك غرضاً وفي يدي غرضاً، لكن الغرض بيدك يبدو

obeikandl.com

أن له قيمة، أما الغرض الذي بيدي فقد أخبرني والدي أن لا قيمة له، فما رأيك أن ازرع هذا الفرنك بقرب هذهِ الشتلة؟ فضحك الرجل العجوز مبتهجاً مِنْ حديث الصغير، وقال له: أوافقك على شرط أن تأتي كل يوم كي تسقي الفرنك، فوافق داني على ذلك دون أن يفكر بالطريق البعيدة والمسافة التي سيقطعها كل يوم، فأصبح لديه وعد صغير يلتزم به، ورأى الرجل العجوز أن يستغل فكرة الفرنك. فقد التقط الفكرة واستخدم هذه الفكرة، وهي الفرنك ليُحقق الرؤيا, دون أن يحدد لها مدةٌ زمنية، فجعل الفكرة تنمو بالرؤيا التي تحيطها طريقة، فالطريقة مُؤسس لها بشكل صحيح.

وجعل من الفرنك حجر الأساس في بناء أول جسر فكري عقائدي اجتماعي ومالي في إقامة وطن لا يملكه، وسلبه من شعب متسامح يملكه. ووظّف كل هذه العناصر في خدمة ودعم المشروع للمستقبل، فالفكرة التي أصبحت قيد التحقيق في نظر العجوز ولا يمكن تطويرها وتحقيقها والوصول لترى النور على ارض الواقع إلا بالعمل. لأن الأهداف تتحقق

من تلقاء نفسها من خلال العمل والإنجاز، وكل هذا قائم على الطريقة الصحيحة القائمة على العمل الموحد والمشترك الجماعي، فقد تمثل الهدف الأول الذي سيتحقق من خلال الطريقة التي أوجدها الرجل العجوز في بناء شخصية داني الذي غرس العجوز في روحه حب الفكر والتعلق بالأرض، وهذا يحتاج لهدف ثان مرتبط به، يتمثل في إيجاد شخصية قيادية مهمة يحتاجها الطفل بعدما تنمو وتبرز شخصيته لتكون هذه الشخصية في خدمة المجموعة، إلى جانب ضم الرجل الحكيم ليكون شريكا معهم بعمل موحد, لتضمن للمجموعة بقاء تواجدهم في نفس الأرض بنفس المكان بنفس روح الانتماء، فتحقق بذلك سلامتهم وأمنهم. والهدف الأكبر والأخير إقامة دولة. والرجل العجوز أدرك بحنكته وخبرته أن داني مستقبلا سيحصل على تلك الشخصية القيادية التي تمكنه من بناء ما يخطط له.

(3)

ومع مرور الوقت كانت الأيام تبني بين الطفل والرجل العجوز علاقة متينة على الوعد بينهما ويتمثل في ري الشتلة والفرنك معا كعمل مشترك، فازداد تعلق الطفل بالعجوز، مما نتج عنه لقاء يومي وحديث يدور بين العجوز والطفل الصغير، تنمو الشتلة وتكبر، وتتقوى العلاقة بتنوع الحديث اليومي الذي كان يحتاج إليه داني، لإشباع المفاهيم التي تتوفر فيها الإجابات لأسئلته المختلفة، التي تدور في ذهنه و نفسه، ففي كل يوم يكتشف داني إجابات ملائمة للأسئلة، وينهل من جعبة الرجل العجوز المعلومات والحكمة، ويكتسب التجربة، وأصبح العجوز حاجة ملحة في حياة الطفل داني مع مرور الوقت، وازداد الترابط بينها، وأصبح الطفل قريباً منه بمشاعره وجزءاً مهما في حياته.

وفي يوم من الأيام ذهب داني إلى الأرض كعادته التي اكتسبها بفضل ذلك الرجل العجوز، فلم يجده فشعر بالخوف وتملكته الحيرة وساورته الظنون،

وخفق قلبه بشدة، وفاضت عيناه بالدمع، فأخذ يلتفت حوله تارة وينظر إلى السماء تارة أخرى، ويمسح دموعه التي تنهمر مدرارا، تنسكب مرة على الشتلة، ومرة أخرى على الفرنك، تحدثه الدمعات في هذه اللحظات وتوشوشه: لا بشر حولك سوى صوت الرّجل المسن وكلماته التي كان قد غرسها في خاطرك وفكرك. وكانت نسمات من الهبات الجبلية من الهوى تداعب قميصه وخواطره ووجدانه، وتحرك قبعته الصغيرة، فيتموج الزرع وينحني، وتميل رؤوس السنابل تلتفت معه تترقب، ترتفع إلى السماء تقلد حركة أمل، فحمل داني ألمه داخل صدره، وعاد أدراجهُ بخطوات متثاقلة إلى المنزل، لم يخطر يوماً في ذهنه أنَّ الرجل العجوز سيختفي من حياته وقد بلغ داني من العمر عشر سنوات، وكان قد استمر في لقاء وتواصل دائم مع العجوز لمدة خمس سنوات على الأقل، وصل داني إلى منزله دخل منهكاً من التعب، وفي حالة من الحزن الشديد ثم ألقى التحية على والديه، وكانت علامات الحزن بادية على محيّاه، وعلى ملامح وجهه الصغير.

جلس بقرب والده الذي بادر بالتعبير قائلاً: لا تحزن يا بني فأنا أعرف سبب حزنك، وضمه إلى صدره عندها انفجر داني بالبكاء، كان الأبوان يساهمان بطريقه غير مباشره طوال السنوات التي قطعها داني مع الرجل العجوز، وكانا في حالة من الرضي بسبب العناية التي يقدمها الرجل العجوز لداني، وهو يبحث ويكتشف ويتعرف على الإجابات الكافية التي تراود أسئلتها مخيلته، وتبني كيانه وشخصيته، وتشبع نهمه وحبه، نهض الأب من مكان جلوسه، وأخذ بيد ابنه، قبض عليها كناية عن مشاركته الإحساس بالخوف، ثم قال: أعرف أين العجوز موجود الآن، لقد شعر بوعكةٍ صحية تم على إثرها نقله إلى المشفى المجاور للقرية، هيا بنا إلى زيارته. وسوف نكمل الحديث بالمركبة، لقد خشي الأب في هذه اللحظات الحرجة إخبار داني بالمزيد عن حالة الرجل العجوز الصحية، التي قد تتطور إلى الخطرة. وعند صعودهما إلى المركبة كان داني صامتاً لا يتفوه بأدنى كلمة، كان ينظر من نافذة السيارة وهي تسير، ويقدر بذاته المسافة التي يقطعها كل يوم

من أجل لقاء الرجل العجوز، وكأنه يرسم المسافة بقلم حدد فيه عدد السنوات التي قضاها بالوعد الصادق حتى اللحظة، وكأنه يرسم بقلم دقيق، بدأ من منزله مع أول سؤال حتى انتهى للمشفى الذي يرقد فيه الرجل العجوز، وصل داني ووالده إلى مكان العجوز، وانطلقا مسرعين إلى غرفة العناية المكثفة عندها كان المشهد غريباً جدا بالنسبة لداني وغير متوقع كالذي كان في مخيلته، فلم يكن يشبه العيادة التي يذهب إليها عندما يكون مريضاً، لكن الأمر الواقع قد يجبر في أغلب الأحيان أن نتقبله بنفس قبول داني كما يراه, تقدم نحوه وقلبه ينفطر من الألم، حتى وصل السرير بعيون دامعة وكفين مرتعشتين، وقف قرب رأس الرجل العجوز وجعل بيده الصغيرة يلمس وجهه، الذي يبدو وكأنه يغرق في النوم.

فتح الرجل العجوز عينيه، وحاول بصوت أجش يكاد لا يُسمع أن يشجع وجوده بالرغم مما هو عليه، فعززه بقوله: داني! أنت هنا؟ لقد كنت معي دائما أجدك بقربي، آه يا صديقي الصغير، لقد أوفيت

بوعدك، وكنت تروي الفرنك جيدا عندما كنت أنا نفسي أروي الشتلة الصغيرة، لقد كبرتْ وأصبحت شجرة نادرة.

obeikandl.com

(4)

اليوم قد نحل جسدي، وتعطلت أطرافي وذهبت قواي، ولا يوجد لدي أبناء يرثون هذه الأرض من بعدي كي أوصيهم عليها، ليعتنوا بها، لذلك أنت تستحق هذه الأرض لأورثها لك من بعدي، لكن أرغب بتسميتها، ولنسميها معا، فما هو الاسم الذي تنتقيه يا داني؟

قال: الشتلة النادرة ..

قال العجوز: هي كذلك، لكن ماذا تسمي المكان؟

فلم يجب داني .. وبدت عليه حالة من البلبلة.

قال العجوز: فليكن (تل فرنك) وكانت مُخيلة داني لا تتسع أكثر من ذلك مع أن الوصف للصورة يتسع لذلك، لكن الحقيقة الممزوجة مع الخيال في لحظات ما تكون صعبة وتنقسم بين فرح و حزن جعلت داني يكتفي بالصمت، فهز داني رأسه ولم يجد في تلك اللحظات كلمات الشكر التي غابت حتى عن شفتي والده.

قبَّل داني جبين الرجل العجوز معبراً بكلمه: (احبك كثيراً) التي ترجمت فعلا عن محبه وتعلق فيما بعد.

داني لم يتعامل مع الرجل العجوز كأنه جده، بل تعامل معه كصديق رغم فارق السن فيما بينهما، حيث كانت حاجة داني في ذلك الوقت شديدة إلى وجود صديق أو شخص بالغ قريب منه يشاركه الأفكار والمصطلحات، كبير صغير، قريب بعيد، يتطرق من خلالها إلى مفاهيم وحوار بناء يشترك فيه الصغار والكبار، مثل مكعبات صغيرة نجمعها لنصنع منها مكعباً كبيراً .. توصف بعدها بحسب الشكل المركب.

obeikandl.com

(5)

تعلَّم داني مراقبه الأشكال كشكل صغير يضاف إليه حتى يكبر بترتيب الأحجام، فهناك شكل قد نغذيه حتى ينمو بحسب الأنواع والمواد، فتلك الأشياء المادية بمقدورنا أن نعيد تصنيعها إذا فقدت جماليتها أو أصبحت دون استعمال، قد تخدم في غير عصرها لتبقى من الآثار لعصر قادم كمقوله الكاتب (أنا لا أعرف كل شيءٍ، لكني اعرف من الشيء كله الإدراك بالكيف).

كغرض يتحول من عديم الفائدة إلى مفيد بعد إعادة تصنيعه، حتى يعود إلى سابق عهده، و يتم ترميز الشيء ليدل على وجوده بالمعنى، مثل شماعة الغرض لتعليق الغرض عليها، وبمفهوم آخر لها استعمال للمعنى يغير وظيفتها، لتصبح شماعة أخطاء، فتتحول وتتغير من وظيفة لخدمة الشخص الجسدية إلى وظيفة معنوية لخدمة الشخص النفسية كمخرج من مشكلة.

داني! لم يقف عند الوعد مكتوف اليدين بل أصبح مثابراً ولديه نشاطه الخاص الذي يقوم به بمتابعة العمل الفردي المطلوب منه بالذهاب إليه كل يوم، وبمرور الأيام والأعوام فقد أصبح شاباً فتياً قوياً ووسيماً يلتحق بالكلية المجاورة للقرية، وتعرف على مجموعه من الأصدقاء من بينهم تميزت صديقته رفقه التي سمعت عنه الكثير من أهل القرية، وأصبح لديها فكرة عن الأرض التي ستصبح وطنا، تلك الأرض التي يمتلكها داني، وهذا أمر كافٍ للإعجاب بداني، ومعجبة جدا بعنايته بالشجرة النادرة، وتمسكه بالتل، فهو محط أنظار وإعجاب الجّميع، وجمله أحاديث أهل القرية التي تتحدث عنه مما شجع داني للمبادرة في خدمه أهل القرية، فمدّ أرضها بأنابيب الري, وابرز التل بحبال الكهرباء, وزرع الأرض بأشجار متنوعة، وزرعها بالمحاصيل الزراعية؛ لتحصيل مردود مادي يساعد فيه أهل القرية.

(6)

كانت حاجة داني للخلوةِ بنفسه، وانجذابه للمكان الذي نشأ وعمل جاهداً فيه نفس الحاجة التي بحث عنها وهو صغير، كانت في رأسه مجموعة أسئلة يبحث عن إجابة لها، فعندما كانت حاجته للإجابة آنذاك عن أسئلة كان يجد بقربه الرجل العجوز, يُجيب عن ما يدور في ذهنه، لكن عندما أصبح راشداً وفقد العجوز كان قد توفر لديه الوعي الكافي، الذي يتكون عند الإنسان بعد مرحلة النضج من خلال خوض التجارب في الحياة واكتشاف كل ما يدور فيها لاستكمال مسيرته في الحياة, فأخذ يبحث عن الحكمة من مصادرها، والقول الفصل من مواطنه، فانكب على قراءة كتب التراث، فاختار من عيون الحكمة ما اختارها، ولازم الجلوس مع الحكماء والأدباء لينمي فكره، واقتنى من عيون الكتب الشيء الكثير، وكان يدوّن كل ما يقرأه ويراه مفيدا، ومما دونه من قصص تحمل في طيّاتها الحكمة ودوّنها في مذكراته:

روي أن أحدَ الولاةِ كان يتجول ذات يوم في السوق القديم متنكراً في زي تاجر، وأثناء تجواله وقع بصره على دكانٍ قديمٍ ليس فيه شيء مما يغري بالشراء، كانت البقالة شبه خالية، وكان فيها رجل طاعن في السن، يجلس بارتخاء على مقعد قديم متهالك، ولم يلفت نظر الوالي سوى بعض اللوحات التي تراكم عليها الغبار، اقترب الوالي من الرجل المسن وحيّاه، ورد الرجل التحية بأحسن منها، وكان يغشاه هدوء غريب، وثقة بالنفس عجيبة .. وسأل الوالي الرجل:

دخلت السوق لاشتري فماذا عندك مما يباع !؟

أجاب الرجل بهدوء وثقة: أهلا وسهلا، عندنا أحسن وأثمن بضائع السوق. قال ذلك دون أن تبدر منه أية إشارة للمزح أو السخرية.

فما كان من الوالي إلا أن ابتسم، ثم قال:

هل أنت جاد فيما تقول؟

أجاب الرجل:

نعم، كل الجد، فبضائعي لا تقدَّر بثمن، أما بضائع السوق فإن لها ثمن محدد لا تتعداه.

دُهش الوالي وهو يسمع ذلك ويرى هذه الثقة.

وصمت برهة وأخذ يقلب بصره في الدكان، ثم قال:

ولكني لا أرى في دكانك شيئا للبيع!

قال الرجل: أنا أبيع الحكمة.. وقد بعت منها الكثير، وانتفع بها الذين اشتروها!، ولم يبق عندي سوى لوحتين.

قال الوالي: وهل تكسب من هذه التجارة؟

قال الرجل وقد ارتسمت على وجهه طيف ابتسامة:

نعم يا سيدي، فأنا أِربح كثيراً، فلوحاتي غالية الثمن جداً.

تقدّم الوالي إلى إحدى اللوحتين ومسح عنهما الغبار، فإذا مكتوب فيها:

(فكر قبل أن تعمل) ....تأمل الوالي العبارة طويلا .. ثم التفت إلى الرجل، وقال:

بكم تبيع هذه اللوحة؟

قال الرجل بهدوء: بعشرة آلاف دينار فقط.

ضحك الوالي طويلا حتى اغرورقت عيناه، وبقي الشيخ ساكنا كأنه لم يقل شيئاً، وظل ينظر إلى اللوحة باعتزاز. فقال الوالي: عشرة آلاف دينار..!! هل أنت جاد؟

قال الشيخ: ولا نقاش في الثمن.

لم يجد الوالي في إصرار العجوز إلا ما يدعو للضحك والعجب.

وخمن في نفسه أن هذا العجوز مختل في عقله، فظل يسايره وأخذ يساومه على الثمن، فأوحى إليه أنه سيدفع في هذه اللوحة ألف دينار .. والرجل يرفض، فزاد ألفا ثم ثالثة ورابعة حتى وصل إلى التسعة آلاف دينار .. والعجوز ما زال مصرا على

obeikandi.com

كلمته التي قالها. ضحك الوالي وقرر الانصراف، وهو يتوقع أن العجوز سيناديه إذا انصرف، ولكنه لاحظ أن العجوز لم يكترث لانصرافه، وعاد إلى كرسيه المتهالك فجلس عليه بهدوء.

وفيما كان الوالي يتجول في السوق فقد فكّر.

لقد كان ينوي أن يفعل شيئاً تأباه المروءة، فتذكر تلك الحكمة (فكر قبل أن تعمل!!)

فتراجع عما كان ينوي القيام به !! ووجد انشراحا لذلك.

وأخذ يفكر وأدرك أنه انتفع بتلك الحكمة، ثم فكر فعلم أن هناك أشياء كثيرة، قد تفسد عليه حياته لو أنه قام بها دون أن يفكر.

ومن هنا وجد نفسه يهرول باحثاً عن دكان العجوز في لهفة، ولما وقف عليه، قال: لقد قررت أن أشتري هذه اللوحة بالثمن الذي تحدده.

لم يبتسم العجوز ونهض من على كرسيه بكل هدوء،

obeikandl.com

وأمسك بخرقة ونفض بقية الغبار عن اللوحة، ثم ناولها للوالي، واستلم المبلغ كاملاً، وقبل أن ينصرف الوالي، قال له الشيخ: بعتك هذه اللوحة بشرط!

قال الوالي : وما هو الشرط ؟

قال: أن تكتب هذه الحكمة على باب بيتك، وعلى أكثر الأماكن في البيت، وحتى على أدواتك التي تحتاجها عند الضرورة.

فكر الوالي قليلا ثم قال: موافق.

وذهب الوالي إلى قصره، وأمر بكتابة هذه الحكمة في أماكن كثيرة في القصر، حتى على بعض ملابسه وملابس نسائه وكثير من أداواته. وتوالت الأيام وتبعتها شهور، وحدث ذات يوم أن قرر قائد الجند أن يقتل الوالي لينفرد بالولاية، واتفق مع حلاق الوالي الخاص، أغراه بألوان من الإغراء حتى وافق أن يكون في صفه، وفي دقائق سيتم ذبح الوالي!

obeikandl.com

ولما توجه الحلاق إلى قصر الوالي أدركه الارتباك، إذ كيف سيقتل الوالي، إنها مهمة صعبة وخطيرة، وقد يفشل ويطير رأسه.

ولما وصل إلى باب القصر رأى مكتوبا على البوابة: (فكر قبل أن تعمل!!)

وازداد ارتباكاً، وانتفض جسده، وداخله الخوف، ولكنه جمع نفسه ودخل، وفي الممر الطويل، رأى العبارة ذاتها تتكرر عدة مرات هنا وهناك:

(فكر قبل أن تعمل !) (فكر قبل أن تعمل !!) (فكر قبل أن تعمل !!) .. !! وحتى حين قرر أن يطأطئ رأسه ، فلا ينظر إلا إلى الأرض، رأى على البساط نفس العبارة تخرق عينيه.

وازداد اضطرابا وقلقا وخوفا، فأسرع يمد خطواته ليدخل إلى الحجرة الكبيرة، وهناك رأى نفس العبارة تقابله وجهاً لوجه: (فكر قبل أن تعمل !!)

فانتفض جسد ه من جديد، وشعر أن العبارة ترن في أذنيه بقوة لها صدى شديد!

وعندما دخل الوالي هاله أن يرى أن الثوب الذي يلبسه الوالي مكتوبا عليه:

(فكر قبل أن تعمل !!) ..

شعر أنه هو المقصود بهذه العبارة، بل داخله شعور بأن الوالي ربما يعرف ما خُطط له !!

وحين أتى الخادم بصندوق الحلاقة الخاص بالوالي، أفزعه أن يقرأ على الصندوق نفس العبارة:

(فكر قبل أن تعمل).. !!

واضطربت يده وهو يعالج فتح الصندوق، وأخذ جبينه يتصبب عرقا، وبطرف عينه نظر إلى الوالي الجالس فرآه مبتسما هادئاً، مما زاد في اضطرابه وقلقه.

فلما همّ بوضع رغوة الصابون لاحظ الوالي ارتعاشة يده، فأخذ يراقبه بحذر شديد ، وتوجس، وأراد الحلاق أن يتفادى نظرات الوالي إليه، فصرف نظره إلى الحائط، فرأى اللوحة منتصبة أمامه: (فكر قبل أن

تعمل !) فوجد نفسه يسقط منهارا بين يدي الوالي وهو يبكي منتحبا، وشرح للوالي تفاصيل المؤامرة.

وذكر له أثر هذه الحكمة التي كان يراها في كل مكان، مما جعله يعترف بما كان سيقوم به. ونهض الوالي وأمر بالقبض على قائد الحرس وأعوانه، وعفا

عن الحلاق .. وقف الوالي أمام تلك اللوحة يمسح عنها ما سقط عليها من غبار، وينظر إليها بزهو، وفرح وانشراح، فاشتاق لمكافأة ذلك العجوز، وشراء حكمة أخرى منه !! لكنه حين ذهب إلى السوق وجد الدكان مغلقاً، وأخبره الناس أن العجوز قد مات.

ومما دوَّنه داني نثرا من أقوال الحكماء في الحكمة:

الحكمة هي عصارة التجارب الحياتية وإفراز للحوادث والنوازل والهام بعد تفكير وتدبر للأمور. والحكمة هي نتيجة قناعة راسخة. والحكمة نظر في المآل واستخلاص للعاقبة بعد استشراف للمستقبل ومعرفة للمقصد.قال أيوب:»وأما الحكمة فأين توجد؟ والفطنة أين مقرها؟ لا يعرف الإنسان قيمتها».

وقال الإمام علي بن أبي طالب: «إن الحكمة هي ضالة المؤمن، فخذوا الحكمة ولو من أهل النفاق». بالحكمة نطق سلمان الفارسي حين قال:» ثلاث أفزعتني وأضحكتني: مؤمل الدنيا والموت يطلبه، وغافل وليس يغفل عنه، وضاحك ملء فيه ولا يدري أساخط ربه».

وعن ابن عباس قال: ضمني رسول الله –صلى الله عليه وسلم– إلى صدره، وقال: «اللهم علمه الحكمة» [رواه البخاري].

وقال السيد المسيح:» إن الحكمة هي نور كل قلب».

وقال أرسطو: «الحكمة رأس العلوم والأدب والفن، هي تلقيح الإفهام ونتائج الأذهان».

وقال أفلاطون: «الفضائل: هي الحكمة، العدالة، الشجاعة، الاعتدال».وقال أيضا:»نحن مجانين إذا لم نستطع أن نفكر، ومتعصبون إذا لم نرد أن نفكر، وعبيد إذا لم نجرؤ أن نفكر».

obeikandl.com

وقال هيجل: «الحكمة هي أعلى المراتب التي يمكن أن يتوصل إليها الإنسان فبعد أن تكتمل المعرفة ويصل التاريخ إلى قمته تحصل الحكمة، وبالتالي فالحكيم أعلى شأنا من الفيلسوف، والحكمة هي المرحلة التالية والأخيرة بعد الفلسفة. إنها ذروة الذرى وغاية الغايات وهنيئا لمن يتوصل إلى الحكمة والرزانة».

وسئل سقراط: « لماذا اخترت أحكم حكماء اليونان؟»،

فقال: «ربما لأنني الرجل الوحيد الذي يعترف أنه لا يعرف».

يجب أن تكون عندنا مقبرة جاهزة لندفن فيها أخطاء الأصدقاء.

من الحكمة أن يخفي المرء مذهبه وذهبه وذهابه

ومما حفظه من حكم المتنبي وخطها بيده في دفتره:

نَبْكِي عَلَى الدُّنْيَا وَمَا مِن مَعْشَرٍ

جَمَعَتْهُمُ الدُّنْيَا فَلَمْ يَتَفَرَّقُوا

أَيْنَ الأَكَاسِرَةُ الْجَبَابِرَةُ الأُلَى

كَنَزُوا الكُنوزَ فَمَا بَقِينَ وَلا بَقُوا

مِن كُلِّ مَن ضَاقَ الفَضاءُ بِجَيْشِهِ

حَتَّى ثَوَى فَحَواهُ لَحْدٌ ضَيِّقُ

فَالْمَوْتُ آتٍ وَالنُّفوسُ نَفَائِسٌ

والْمَسْتَعِزُّ بِمَا لَدَيْهِ الأَحْمَقُ

والْمَرْءُ يَأْمُلُ والْحَيَاةُ شَهِيَّةٌ

وَالشَّيْبُ أَوْقَرُ والشَّبيبةُ أنزَقُ

إِذَا غَامَرْتَ فِي شَرَفٍ مَّرُوم

فَلا تَقْنَعْ بِمَا دُونَ النُّجُومِ

فَطَعْمُ الْمَوْتِ فِي أَمْرٍ حَقِيرٍ

كَطَعْمِ الْمَوْتِ فِي أَمْرٍ عَظِيمِ

يَرَى الْجُبَنَاءُ أَنَّ الْعَجْزَ عَقْلٌ

وَتِلْكَ خَدِيعَةُ الطَّبْعِ اللَّئِيمِ

وَكُلُّ شَجَاعةٍ فِي الْمَرْءِ تُغْنِي

وَلا مِثْلَ الشَّجَاعَةِ فِي الْحَكِيمِ

وَكَمْ مِّنْ عَائِبٍ قَوْلًا صَحِيحًا

وَآفَتُهُ مِنَ الْفَهْمِ السَّقِيمِ

وَلَكِنْ تَأْخُذُ الآذَانُ مِنْهُ

عَلَى قَدَرِ القَرَائِحِ والعُلُومِ

إِنِّي لأَعْلَمُ –واللَّبيبُ خَبِيرُ

أَنَّ الحيَاةَ –وَإِنْ حَرَصْتَ– غُرُورُ

obeikandl.com

وَرَأَيْتُ كُلاًّ ما يُعَلِّلُ نَفْسَهُ

بِتَعِلَّةٍ وَإِلَى الفَنَاءِ يَصِيرُ

إِلَى كَمْ ذَا التَّخَلُّفُ والتَّوَانِي

وَكَمْ هَذَا التَّمَادِي فِي التَّمَادِي

وَشُغْلُ النَّفْسِ عَن طَلَبِ الْمَعَالِي

بِبَيْعِ الشِّعْرِ فِي سُوقِ الكَسَادِ

وَمَا مَاضِي الشَّبَابِ بِمُسْتَرَدٍّ

وَلا يَوْمٌ يَمُرُّ بِمُسْتَعَادِ

مَتَى لَحَظَتْ بَيَاضَ الشَّيْبِ عَيْنِي

فَقَدْ وَجَدَتْهُ مِنْهَا فِي السَّوَادِ

مَتَى مَا ازْدَدتُّ مِنْ بَعْدِ التَّنَاهِي

فَقَدْ وَقَعَ انتِقَاصِي فِي ازْدِيَادِي

obeikandi.com

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ العَزْمِ تَأْتِي العَزَائِمُ

وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الكِرامِ المكَارِمُ

وَتَعْظُمُ فِي عَيْنِ الصَّغِيرِ صِغَارُهَا

وَتَصْغُرُ فِي عَيْنِ العَظِيمِ العَظَائِمُ

لا افْتِخَارٌ إِلاَّ لِمَن لا يُضامُ

مُدْرِكٍ أوْ مُحَارِبٍ لا يَنَامُ

لَيْسَ عَزْمًا مَا مَرَّضَ الْمَرْءُ فِيهِ

لَيْسَ هَمًّا مَا عاقَ عَنْهُ الظَّلامُ

وَاحْتِمَالُ الأَذَى وَرُؤيَةُ جَانِيـ

ـهِ غِذاءٌ تَضْوَى بِهِ الأَجْسَامُ

ذَلَّ مَن يَغْبِطُ الذَّليلَ بِعَيشٍ

رُبَّ عَيْشٍ أَخَفُّ مِنْـهُ الْحِمَامُ

مَنْ يَهُنْ يَسْهُلِ الهَوَانُ عَلَيهِ

مَا لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إِيلامُ

إذا أنت أكرمتَ الكريمَ ملكتهُ

وإن أنت أكرمتَ اللئيمَ تمردا

شرُ البلاد مكان لا صديق بهِ

وشر ما يكسب الإنسان ما يصمُ

نُعِدُّ الْمَشْرَفِيَّةَ وَالْعَوَالِي

وَتَقْتُلُنَا الْمَنُونُ بِلا قِتالِ

وَنَرْتَبِطُ السَّوَابِقَ مُقْرَبَاتٍ

ومَا يُنجِينَ مِنْ خَبَبِ اللَّيالِي

وَمَن لَّمْ يَعْشَقِ الدُّنيا قَدِيمًا؟!

ولَكِن لاَّ سَبيلَ إِلَى الوِصال

نَصيبُكَ فِي حَيَاتِكَ مِنْ حَبيبٍ

نصيبُكَ فِي مَنَامِكَ مِنْ خَيَالِ

وَأَفْجَعُ مَن فَقَدْنَا مَن وَّجَدْنَا

قُبَيْلَ الفَقْدِ مَفْقُودَ الْمِثالِ

يُدفِّنُ بَعْضُنَا بَعْضًا وَّتَمْشِي

أَوَاخِرُنَا عَلَى هَامِ الأَوَالِي

وَكَمْ عَيْنٍ مُّقَبَّلَةِ النَّواحي

كَحِيلٌ بِالجَنَادِلِ والرِّمالِ

وَمُغْضٍ كَانَ لا يُغْضِي لِخَطْبٍ

وبالٍ كَانَ يَفْكُرُ فِي الهُزَالِ

هَوَّنَ الصَّبرُ عِندِي كُلَّ نازِلَةٍ

وَلَيَّنَ العَزْمُ حَدَّ الْمَرْكَبِ الْخَشِنِ

oberkandi.com

كَم مَّخْلَصٍ وَعُلًى فِي خَوْضِ مهْلكَةٍ

وَقَتْلَةٍ قُرِنَتْ بالذَّمِّ فِي الْجُبُنِ

لا يُعْجِبَنَّ مَضِيمًا حُسْنُ بِزَّتِهِ

وَهَلْ تَرُوقُ دَفِينًا جَوْدَةُ الكَفَنِ؟

وَإذا كَانَتِ النُّفُوسُ كِبارًا

تَعِبَتْ فِي مُرادِهَا الأجْسَامُ

ومن حكم زهير التي حفظها داني عن ظهر قلب:

ومَن يعصِ أطرافَ الزِّجاجِ

فإنّه يطيعُ العوالي رُكبَت كلَّ لَهذَمِ

ومَن يوفِ لا يُذمَم ومَن يُهدَ قلبُهُ

إلى مطمئنّ البرِّ لا يتَجَمجَمِ

ومَن لا يُصانع في أمور كثيرة

يُضَرَّس بأنياب ويوطأ بمَنسِمِ

ومَن يجعلِ المعروفَ من دون عِرضِهِ

يفِره ومَن لا يتَّقِ الشّتمَ يُشتَمِ

لسانُ الفتى نِصفٌ ونصفٌ فؤادُهُ

فلم يبقَ إلاّ صورةُ اللّحمِ والدَّمِ

وإنّ سَفاهَ الشيخِ لا حِلمَ بعدَهُ

وإنّ الفتى بعد السفاهةِ يحلُمِ

ومن هابَ أسبابَ المنايا ينَلنَهُ

وإن يرقَ أسبابَ السماءِ بسُلَّمِ

ومَهما تَكن عندَ امرئ من خَليقة

وإن خالَها تَخفى على الناسِ تُعلَمِ

سألنا فأعطَيتُم وعُدنا فعُدتُمُ

ومَن أكثر التسآلَ يوماً سيُحرَمِ

فإنّ الحقَّ مَقطَعُهُ ثلاثٌ

يمينٌ أو نفارٌ أو جلاءُ

فلا تَكتُمُنَّ اللّه ما في نُفوسِكم

لِيَخفَى ومهما يُكتَمِ اللّهُ يَعلمِ

يؤخَّر فيوضَع في كتاب فيُدّخَر

لِيومِ الحسابِ أو يُعَجَّل فيُنقَمِ

رأيتُ المنايا خَبطَ عَشواءَ مَن تُصِب

تُمِتهُ ومن تُخطِيء يُعَمَّر فيَهرِمِ

وهَل ينبِتُ الخطّيَّ إلاّ وَشيجُهُ

وتُغرَسُ إلاّ في منابتِها النَّخلُ

تزوَّد إلي يومِ المماتِ فإنّهُ

وإن كرهتهُ النفسُ آخرُ موعدِ

obeikandl.com

(7)

أصبح هذا التل الجزء الأصعب من حياه داني، كونه يمتلكه، حيث أن هذا المكان بالنسبة إليه شيء هام جدا، تدور حوله الأفكار ويرسم عبر صفحاته الأبعاد التي تتجول بالمستقبل من خلالها ذكرى الرجل العجوز، التي تمثلت ما بين صفحات أسطوريه و خياليه، ليجعل داني من الخيال حقيقة، تثري الصفحات كوسيط ما بين الحاضر والمستقبل، ولكل صفحة هدف مثل صفحه تمتلئ بالمعرفة والمعلومات عندما تعززها الأدوات في استعمالها، حيث تتعاضد وتعمل معا بوظيفة معينة بحسب توافرها, فإلى جانب «رفقة» التي أصبحت جزءاً مهماً في حياه داني التي أعجب بها عندما زار الكيبوتس المجاور لأول مرة، فمنذ أن عبَّرت عن نفسها جعلت التعبير هوايةً للآخرين، فهي تلعب دور الصديق, وتتمنى أن تؤدي دور الحبيب، في وقت واحد، تستطيع رفقه أن تغمر داني في عطفها وحنانها بعد الشعور الرهيب بالوحدة القاتلة التي شعر فيها داني بعد فقدان الرجل العجوز، فعندما

تجلس معه و تستمع إليه لا تجد رفقة في كلمات داني ما يصف جمالها وأنوثتها، فهي تقطع معه مرحلة مهمة، وترغب كثيراً أن يتحدث إليها، لكن داني لا يتحدث أمامها سوى عن الرجل العجوز، وبالرغم من ذلك لم تشعر بالملل، فهي تصغي لصديقها جيداً وتهتم لما يقوله، وتتخيل الكلمات التي يقولها وتعيش معها، وتفهم أن السنوات التي قضاها مع الرجل العجوز كانت سنوات مؤثره لشخصيته المؤثرة كحكيم، لذلك لا تجد في كلمات حبيبها شيئاً يتطرق إليه، لا تجده مازحاً، أو مستهتراً أو متهاوناً وكأنها تجلس مع الرجل العجوز نفسه، أصبحت تعشق هذه الأفكار وتلك الشخصية بالرغم من عدم وجود ما في جعبة داني من القصائد الغزلية التي تنال إعجابا، وتعزز ثقتها بنفسها، يا الهي! كم هذا الرجل جدّي، فهي تعيش في معسكر كله ضغط وضبط.

(8)

ساور الشك داني بعد أن أصبح رجلاً بالغاً وحكيماً حول طلب الرجل العجوز وهو على فراش الموت, حيث طلب من داني انتقاء اسم التل. فهل أراد الرجل العجوز أن يثني عليه عندما أوفى بوعده له بأن يذهب كل يوم لري الفرنك؟ وما الهدف من إكساب عادة لا تضر ولا تنفع؟ وكيف كان والديّ داني يراقبان داني دون توجيه الأسئلة إليه، وهما على علم بما يقوم به منذ سنوات عديدة دون الاعتراض على ما يفعل او منعه من ذلك؟ وهل اسم التلِّ هذا يليق بأرض مقدسة ويتناسب مع مكانتها وقدسيتها؟. وكيف تحول ما حول الشجرة من أرض متصحرة إلى قرية؟ وهل كان الرجل العجوز يسقي النبتة بنفس الطريقة التي كان يسقي فيها داني الفرنك؟ وما بال الكيبوتس المنغرس داخل هذه القرية؟ وما علاقة القرية بالفرضية التي افترضتها رفقة عندما أرادت أن تضم داني إلى مجموعتها ذات العقول إلى جانب مجموعة الحيوانات؟ وكيف أن الفرضية يمكنها أن تنجح بوضع شروط وعندما يقبل داني الشروط

وأحد هذه الشروط العمل دون أجر من ذهب او فضة, وتكتفي بأن يكون الأجر جزءاً من الأرض مقابل العمل والإعمار فتصبح هذه المجموعة شريكة بالأرض قانونيا؟ وما حاجة الرجل العجوز, الذي لم ينجب ولدا ولم يكن له وريث يورثه بعد موته فيورثها لداني؟ وما سر تعليمه لداني القصص والحكمة ليكون بالمستقبل رجلا حكيما، وكيف أن أمنيته قد حققها وتمت بتسجيل الأرض لداني قبل موته, كل هذه الأفكار وتلك الأسئلة كانت تدور في ذهن داني ليجد لها أجوبة مقنعة وهو في خلوته في التل، وفي فوضى الفكر وانشغاله، كان في رأسه مجموعة قضايا وأفكار تلح على ذاكرته ليجد لها حلا، ولقد أصبح منشغلا في إيجاد حل لهذه الأسئلة فكان يشرد بذهنه في التفكير، وذات يوم نسي أن يتفقد أغراضه وأشياءه، لقد نسي داني أن يتفقد الوقود، فنفذ من الوسيلة او المركبة التي ستعيدهُ إلى البيت. كذلك نسي هاتفه الخلوي, فشعر بالحزن والوحدة وهو محاصر هناك في التل. فبادرت النفس بالسؤال في لحظات مليئة بسخط الشعور وتفاعلت العين

فذرفت دمعة، فقال مخاطبا نفسه:

لا رغبة لي بالبكاء يا عين, كيف أقاوم همس الشعور؟

فقرر أن يمضي سيرا على الأقدام، فقطع مسافات ومسافات، حتى حان وقت الوصول, فكان يلذ لعينيه أن تريا الطبيعة وجمالها الفتان، فقد تمايلت خضرة السنابل بجنين القمح وحملت بنادرة العصور، وأخذ يردد في نفسه قائلا:

لما الكليم اشتاق إليك دعاك لينظر قطع جناح الطير وبعثر النحور، وتساءلت الأجساد كيف نمت من عجم فصرخت الويل لنا ها قد جاء يوم النشور.

وأما رفقة فقد استطاعت أن تحصل على ثقة داني من خلال الوقت المتوفر لهما في الكلية، فهي تراه وتلتقي به كل يوم، ويتحدثان حول أمور عديدة، إذ يطلعها داني على جل الأمور التي تشغله، ويخبرها عن الصعاب التي يواجهها ويستطرد في الحديث عن نفسه. ولم يشعر الصديقان بأن ثمة ضبابية تغطي آفاقاً بينهما.

واستمر كل منهما في تعزيز العلاقة وحفظ الأسرار بالرأي والأفكار وتبادل المعلومات فيما بينهما، عندها استطاعت رفقه بكل ثقة واطمئنان دعوة صديقها إلى زيارتها في المكان التي تقطن فيه مع مجموعتها في الكيبوتس الصغير، فثمة عمل جماعي هناك، ومزرعة صغيرة يعمل فيها طلاب الكيبوتس، فهم يعملون من أجل توفير أقساط التعليم، وكان يحيط بذلك الكيبوتس حديقة مساحتها متوسطة، والمعسكر يتكون من مجموعتين من أفراد الخدمة في الجيش، وكانوا يتعلمون في هذه المرحلة إلى جانب العمل في مهن بسيطة كبداية لكل شاب، ويحصل كل واحد منهم على شهادة تخصص، ثم بعد تخرجه يعمل الطالب بالوظيفة التي ينتقيها كل حسب تخصصه، وفي أحيان كثيرة يكتفي الطالب في خدمه الجيش، شرحت رفقة لصديقها طبيعة العمل وما يخص المجموعة، موحية له بأنها لا تعيش في هذا الوقت مع العائلة في البيئة القريبة بسبب دراستها، وكان داني يصغى لكل ما تقوله رفقة، وكان يصمت لحظات، ويهز برأسه موافقا طلبها

بزيارتها والمجموعة التي تنتمي إليها والتي تتحدث عنها طوال الوقت في فرح وسرور كلما سنحت له الظروف، تمنت أن تجري سائر الأمور كما تريد، فهي تحب صديقها هذا كثيرا، وتتمنى أن يعبِّر لها عن مشاعره كما ينبغي أن يكون التعبير بين حبيبين حميمين.

obeikandl.com

(9)

و بعد أيام من التقاء داني برفقة، واقترب موعد لقائهما مرة أخرى, انتظر داني بفارغ الصبر هذا اللقاء، وعند غروب الشمس بعد أن ارتدى ملابسه الأنيقة، وجلس يشاهد السماء من شرفة البيت ويراقب غروب الشمس، وكأنها تعزف سيمفونية عذبة كعذوبة لون السماء وتمتزج بلون الشفق، فتتابعت بعض الأسئلة الهاربة التي بدأت تتكون وتتجمع في ذهنه، وهو يشاهد الغروب في السماء وقت الشفق وهدوء الساعة بعودة الطيور إلى أعشاشها وأوكارها والغيوم إلى ألوانها، وكأنها ساعة تنبئ بضرورة الترتيب وعودة كل شيء إلى مكانه الطبيعي.

داني تنهَّد وقت المغيب، فتساءل أن كيف للشمس لا تغرب او تشرق على قوم دون قوم ولا تخص جماعة دون أخرى، وأن الأرض تجمع ما عليها وتنبت لكافة البشر دون إقصاء أو تحيز، وأن روعة الصور الطبيعية للطبيعة الخلابة وجماليتها للعين تشي وتبين كم هو عادل مسيِّر هذا الكون، وان

البشر هم من حدد وقسم وبعثر وجزَّأ وشرد وشوّه الطبيعة.

وكان داني يدرك أن ثمة ظلم يتعامل به البشر، يظلمون ويتجاهلون ويدفعون بعضهم البعض لا من زحمة بل من أطماع وأنانية، خشية معتقد غير صحيح يمثلونه مع عدم القناعة بما يمثلون، كأن بالقوة يصمدون فلا يهددهم القدر ولا يداهمهم الخطر، إذا ما أصبحت هذه الأرض مُلكاً لقوم سيصبح كل شيء ملكا لهم: الزرع والمحصول والمعبد، والكتاب، والعلم والأحياء، والصيف والشتاء، حتى إذا ما تحقق سقف أمنياتهم يتطور هذا المعتقد في مخيلتهم ويتصورون بأن يوما ستشرق الشمس فقط لهم، وتغيب فقط عنهم بنفس المعنى للغياب من فقدناهم. آه يا إلهي! نعم، يا الهي! كم يكون الأمر غير محتمل لدرجة عدم تصديقه، قد يذهب بنا الإحساس بعيدا كأن نصدق بأن الأشخاص الذين نحبهم سوف يغيبون عنا مدة الشروق، لكن إذا أشرقت الشمس وأصبح لدينا المعتقد صحيحاً بعدم عودتهم عندها ينتابنا الخوف من العقاب لأنفسنا بأننا قد نكون السبب بغيابهم او

فقدانهم، فليس كل الأعراض أمراضاً جسدية، لكن المشاعر كذلك تعاني من التعب والخوف وتؤثر في نشاط وحياة الإنسان، فقد تحزن لذاتها عند المواجهة وتفرض علينا بعض الحلول كبديل، وقد يكون هناك اجتهاد للقبول بالأزمة بأن كل يوم تشرق الشمس على من يعاني من مشكلة ما، قد تدفعه الحقيقة لتناول بعض العقاقير للنسيان، لأننا نجد بالعقاقير كمفهوم أعمق حاجة من أجل النوم والنسيان.

قال داني يا إلهي! يكادون تدمير أنفسهم التي جعل الله فيها شيئاً من النار كالشجاعة، وشيئاً من الثلج كالجبن، وشيئاً من الريح كالخوف والتنافر، وشيئاً من المطر كالتغذية والتربية، وحتى يدرءون عن أنفسهم ويلات المعاناة والخوف، يجمعون للشجاعة الحطب من أحاسيسهم ومشاعرهم الدفينة المتأثرة بأجواء تحتضر، وقد يعطشون فيحتاجون لمزيد من الوقود الذي يحرق المشاعر لفقدان الوعي، يغيبون ساعات للتخلص من الحالة التي تنتابهم ويشفقون على أنفسهم، ويحفرونّ للزج بأنفسهم، وأحيانا قد يصلون للآخرين، وقد ينفقون جميع أموالهم على

معتقد غير صحيح، لتعصبهم حتى لا يخالفون أهواء إيمانهم المزيف، فالشجاعة لها وجه آخر، كأن يعترفون بأنفسهم بأنهم مخطئون حتى يجنبوا أنفسهم ويلات ما يدعون، فالشفق الملتهب بالحمرة يصور مشاهد عديدة، و يجسد تعذيب أقوام بالنار، وكل مشهد يذكر بمشهد لاحق.

دقّت الساعة، فقفز داني من مكان جلوسه الصامت، وأخذ بتأمل السماء وهو يشعر بالخوف والقلق. وضع داني يده على صدره وشعر بخفقات قلبه كونه وحيداً يفكر بالسماء ويجمع تحت عنوان فكرته أقواما وأقواما، وتلك الأسئلة تحتاج إلى إجابات عادلة.

داني كشخص يتعامل مع المفاهيم والمواريث الدينية الثقافية الإنسانية، ويدرك موطن الاختلاف، ولا يتجاهل العنصرية بأنها لا تزال حتى عصرنا هذا سائدة، فينتج عن هذا رغبته في التحدي ليكون على شاكلته التي تشكلها له الأسباب، فالشكل الأول القريب للناس القائم على البناء بتعزيز القدرات والجهود كحبةٍ بجانب حبةٍ، مصفوفةٍ تغلفها قشرةٌ واحدةٌ حباتها تشبه حجارةً كريمةً حلوةً تبهج الناظر،

وتسبح كل حبه فيها في مكانها دون أن تخلع حبة بقربها، ولها نفس المكان, ونفس اللون, ونفس الطعم، منتظمة في أن تجد لها وصفَ منظومة.

والشكل الآخر يتمثل في التحدي بالتباهي وجنون العظمة، حالة تنتاب بعض أفراد في العالم بسبب الطبقية، وبتوفير صناعات ومشاريع أوجدها الإنسان سلبية وخطيرة، تهدد أمن واستقرار البشر، فينسبها إلى التطور، لكنها منسوبة إلى الهدم الذي هو ضد البناء. فالتحدي أيضا هو معتقد ناتج عن مفهوم القوة المتمثلة بالشر، بتوظيف هذا المصطلح بأن يكونَ بناء أو أن يكون هدما، وأصحاب هذا الشكل والمنتمون إليه ينبغي عليهم إعادة النظر في أفكارهم والتي يصدرونها لغيرهم على أنها تمثل التقدم والتطور، لكن في حقيقة الأمر وظيفتها الهدم، وليس البناء، مثل ذلك أنْ يحقق الإنسان هدفاً ربما يعيش لأجله حتى يراه يتحقق أمامه، بثمن من مالهِ ووقتهِ وحياتهِ فيصل إليه بعد هذا المجهود، فإذا تحقق أصبح ممنوعاً لأنه يشكل شيئاً يعاقب عليه مثل صناعة الأسلحة وغيرها من المواد السامة.

لكن المشكلة تكمن بأن هذا الممنوع مباح لدى من يسير على تحقيقه ويسعى، وعليه أن يعي عواقب أفعاله وأفكاره التي تجسد جنون العظمة وتسلط الإنسان وتجبّره على الأرض.

وبين الوصف والشفق حان وقت ذهاب داني لزيارة رفقة في الوقت المحدد وبالموعد المعين، لأن الموعد عادة اكتسبها ووفر في كسبها الوقت، واحترام الوقت يشعر المرء حين قدومه بالاحترام فيحظى المرء حينها باستقبال جيد و حماسٍ، على عكس ما يفعله التأخير من فتور و بلبلة يؤدي إلى لا مبالاة وتضيع على آثاره بهجة اللقاء.

وجد داني في هذه المجموعة البسيطة إحساساً بالراحة، فهي عندما تلتقي برجل مثله تشعر بالنعمة، فالحديث المطول لرفقة عن صديقها لمجموعتها جعلت المجموعة تنتظر قدومه في غاية السعادة والصبر، فكيف يكون شعور رفقة، وهي تنتظر!؟

قطع داني مسافة لا بأس بها، وعندما وصل كان الشارع غير معبد وكان معتماً للغاية، يتحسس

الطريق بصعوبة، و لما لمحت رفقة ضوء السيارة كانت لا تنتظر سواه، فركضت إلى الباب وفتحته بشوق، لكن داني شعر بسرعتها وهي تركض إلى الباب، خشي عليها فأوقف المركبة، ونزل، أمسكت بيده ودخلت معه الغرفة، ليجد الجميع ينتظرونه بشوق ومحبة، وأخذ كل فرد منهم يعرِّف بنفسه، فشعر داني لأول مره بأهمية الترحيب كشخص محبوب ومرغوب في حضوره وزيارته للمجموعة، فجلس معهم وحاورهم بأريحية.

obeikandl.com

(10)

وراح ينظر حوله فسأل رفقة: هل هي غرفه واحدة؟

قالت: لا، هي مجموعه غرف، لكنها صغيرة، وسوف اصطحبك لتتعرف على المكان، فثمةَ هنالك مزرعة جميله وصغيرة تحيط بالمكان، توقع داني بحسب حديث رفقة شيئاً آخرَ وعندما راح يراقب المكان وجد جدران الغرف تكاد تكون متماسكة عتيقة ومشققة، لكنها تبدو بأنها صامدة بالحب، فتعاون المجموعة بالعمل المشترك جعلها متماسكة، مما بعث في نفس داني نوعاً من الاطمئنان، فالمصلحة بفائدتها تعود للجميع و ليس لفرد واحد، والعمل الجماعي جانب من احد الجوانب المهمة في الترابط الذي هو هدف المجموعة، إلى جانب تلبية الاحتياجات المادية والاجتماعية فتلك الغرف التي تشبه الأكواخ تشكل مخيماً صغيراً قائماً على نشاط جماعي باعتمادهم على أنفسهم وما توفر لديهم من أدوات وأغراض عمل، أمّا المزرعة فهي مزرعة الدجاج الصغيرة مفصولة بأقفاص الدجاج في مساحه بينها وبين

مزرعة الأرانب، مسقوفة بالقش و أعمده خشبية بسيطة، لكنها جميلة ومرتبة، كذلك يوجد داخلها أفراخٌ صفراء حصلت على إعجاب داني، فشكر لهم حسن إدارتهم وتدبر أحوالهم وأمرهم فيما بينهم قائلاً: أنْ يجد المرء عملاً بسيطاً خيراً من جلوسه فارغ اليدين، وبالرغم من صعوبة الوضع غير أنكم تفكرون جيدا.

لم يحاول داني إظهار أي استغراب عندما وجدهم يعانون، فالمكان لا يصلح للعيش فيه إذ تحيط بالغرف المزرعة، وهذا لا يبدو صحياً في نظر داني. لكنه عزز المجموعة بزياراته التي يقوم فيها للكيبوتس، وأعطى المجموعة انطباعاً حسناً عن شخصيته، فتقبّل داني الدعوة والحضور في الموعد المحدد وتشجيع المجموعة على نوعية العمل، فالعمل خيرٌ من البطالة، رغم ما فيه من مشقة في إطعام الحيوانات وجلب الماء من آبار بعيده عن المنطقة، وشحن محول الكهرباء الذي يحتاج للكثير من الجهد مقابل ربح بسيط يكاد يكون كافياً لمتطلبات الحياة .

أثرت رفقة المخيم البسيط بالمصطلحات الفريدة، وطرحت بعض الأفكار حول المجموعة وأهدافها للمدى البعيد، وتناولت من وعاء وعيها كلمات تروق لصديقها بعد أن تعرفت على ما يحب وما يكره، واهتمت بالحديث الذي يجذبه للإصغاء بأسلوبها الرقيق، الذي يجمع ما بين تناغم وتداخل وضبط، فلقد جعلت الوصف لكل شيء جمعته مناسبا في باقة من النسمات، بزهوره البيضاء، فانتقت من الكلمات أطايبها. ولقد جعلت الأجواء حالمة باحتضان داني للمجموعة، دافئة بالترحيب والبسمات، فهي نموذج جميل أمام داني، يؤكد وجوده، فأخذ داني يصغى مكتفياً بالنظر إلى عيونها في ليله مميزة جمعتهما معاً.

لم يكن داني قد عرف هذا الإحساس الرقيق من قبل، لانشغاله الذي يجعل جلّ وقته بين التل والأرض والدارسة، فأراد أن يشكرها على هذه الأمسية اللطيفة، فجعلت أصابعها على فمه قائلة أن لا حاجه للشكر، لكن الشكر لك أنت على قبولك الدعوة والحضور، لقد أسعدنا هذا المجيء كثيراً أنا ومجموعتي، لقد أدخلت على قلوبنا البهجة والسرور.

فما يشغل رفقه في هذه اللحظات يتمثل في كيفية ضم صديقها إلى المجموعة، وتتساءل في نفسها: هل يفسد طرح الموضوع دفء لقائهما الأول؟ وهل العبرة في صدرها قد تجد لها منفذاً؛ لكن داني أنقذها بالسؤال: حبيبتي هل أنتِ سعيدة هنا؟

قالت: لا أعرف، لكنها هذه مجموعتي التي أنتمي إليها، فأنا لا أعرف مكاناً أفضل، فنحن في هذه المجموعة نشجع بعضنا بعضاً، ولا نشعر بالقلق، فهذه المزرعة لا تسكن فقط في مجموعة غرف بل مجموعه عقول، وحتى نستطيع القيام بإنشاء أي مشروع لا بد من وجود هذه العقول، فما يجمعنا هو أكبر من مزرعة. فمنذ أن تعرَّفت عليك رغبت أنْ تكونَ معنا لقد عشقتك مثل عشقك للشجرة النادرة!

إنَّ هذه الأفكار والقدرات تختلف فيما بيننا، فإذا اجتمعت معاً فسنستطيع أنْ نحدد الطريق المناسب لنصل إليه، وعلينا أنْ نصغي لواقع أنفسنا بالاتحاد لتتحقق لنا لأهداف الموضوعة والمرسومة ضمن عمل مشترك.

أخذَ داني يتمعن في الصورة التي تعرضها رفقه عليه بوضوح، فهي صورة من جوهر كلماتها دون اللجوء إلى الخيال، فقالت له: داني! ألم يَشُدك الحديثُ عن الشجرة النادرة؟

- لماذا لا اصطحبك إلى زياراتها؟
- لم تعرض عليّ الأمر من قبل، لقد أغمضت عينيّ وتساءَلت كيف يمكن أن تكون.
- عندما تتسلقين التل، وتشاهدين الأرض من مكان مرتفع، عندها سوف تكون مصطلحات قد تحققت على أرض الواقع كالتي تتحدثين فيها عن المزرعة.
- وما شأني؟
- عندها تكون قد تحققت بعض من أحلامك، وستشتاقين للزيارة وتنتظرين إلى ما سيتحقق، وستكون ليلة صعبة وقاسية لكنها مشوقة، وقد تشعرين بالوحدة.

obeikandl.com

- حسناً، أمهلني ثلاثة أيام، فيجب أن أُخبر المجموعة.

هذه الإجابة من رفقة كانت لداني كافيه لفهم الترابط والتفاهم بين المجموعة، وبأن رفقه ملتزمةً بها وعندما يكون هنالك خلافات قد يتم فصل الأفراد في حال مخالفة التعليمات التي فيما بينهم، وكأن رفقة تقرأ لداني كلمات من صفحتها الذهنية، فكأنها تقول له إما أن تنتقل إلينا وتعيش معنا، او ننتقل إليك ونعيش معك. وداني هو ذلك الشخص الذي تتلمذ على يد رجل حكيم، فهي ما تريد قوله رفقة دون أن توضح التفاصيل أمامه فتشعره بالحرج.

obeikandl.com

(11)

وبعد مرور ثلاثة أيام وقبل استشارة رفقة للمجموعة، افترضت رفقه فرضيه تتطرق من خلالها عرض المشروع للانتقال من المزرعة إلى "تل فرنك"، والتحول من مشروع صغير إلى مشروع كبير، لكسب صديق آخر وضمه للمجموعة؛ ليتم من خلاله تحديث الوسائل المستخدمة للعمل ماديّا، بالإضافة إلى تطوير الآلات التي يستخدمونها في العمل، لتفي بالغرض وبتسهيله، وبتخفيف الجهد، فمن أجل تطوير خطة لا بد من عقد اجتماع مصغر بينهم، لمناقشه الأمر واستثمار الوقت والجهد في عدة مجالات معينه إلى جانب العمل، لذلك تمت دعوة المجموعة لطرح الفرضيّة المتوقع أن تكون الردود عند مناقشتها مختلفة، قد يجتمعون في الاتفاق عليها او يرفضونها.

(12)

عندما التقت رفقة أولا بداني طرحت عليه الفرضية قبل أن تطرحها على أصدقائها، فطلب داني نفس الطلب أن أمهليني ثلاثة أيام كي أفكر فيها بالرغم من معرفتها بشخصية داني، اعتقدت أنها ستجد رداً في نفس الوقت لكنه أعرض عن الإجابة الفورية، لقد استنتج من الفرضيات أنَّ قبلها نظرية وأوسطها طبيعية وآخرها اتفاق ولم يكن داني مستعداً لها .

رفقة! تشعر لأول مره بعدم ارتياح داني، وحاولت أن تغيير الموضوع، غير أنَّ داني لا يركز فيما تقول، وما في ذهنه أصبح منشغلاً في تلك الفكرة، حيث كان فكره مشغولا بالإجابة عن سؤال يتمحور أنْ كيف الفرنك تلك القطعة التي وجدها لم تكن ذات استعمال في وقتِها، لكنها الآن أصبحت ذات قيمه وانتقلت إلى مفهوم واضح يخدم بناء وطن نواته التل، ليصبح تل فرنك أنموذجا، ينقله من لا أرض إلى أرض ومن حال إلى حال، كان داني مستغرقاً في التفكير فما وفره له الرجل العجوز هو

قبول الطلب عندما طلب منه غرس الفرنك، عندها لم يعارضه الرجل العجوز ووافق على الطلب ولم يحتقره، او يتجاهله كشيء مستحيل.

يواصل داني التفكير لقد التزمتُ بشرط مع الرجل العجوز ثم الزمني الشرط أن أذهبَ كل يومٍ كي أروي الفرنك، أراد الرجل العجوز أن يكسبني ويغرس في ذهني فكرة العمل والأمل، و كنت في ذلك الشرط أفي بوعدي للرجل العجوز.

obeikandl.com

(13)

وبعد مرور ثلاثة أيامٍ، وهي المهلة التي طلبتها رفقة لم تحصل على إجابة محددة من الأفراد، وكانت الردود مختلفة، لقد استمعت رفقة إلى جميع الردود من المجموعة، فكانت الردود متنوعة، فمنهم من قال انه متعلق بالمكان كانتماء وسوف يشعر بالحنين إليه ويخشى ألا يعود إليه إذا تركه، ومنهم من قال هذا أفضلّ، فنحن نعاني لأننا داخل المزرعة وقريبون جدا من الحيوانات، وقد نتأذى من ذلك أو نمرض والانتقال إلى التل أفضل. أما رفقة التي تريد أن تكون مع حبيبها خشيه قطع العلاقة فيما بينهما، فتمنّت ذلك الانتقال، لتسكن معه، لأنه يملك مكاناً أفضل، وأضحت بين الفرقين تتألم. كذلك البعض نشأ و كبر قرب هذه المزرعة وأصبح جزءاً منها، حاله كحال قصة فراشة صفراء وزهرة حمراء من صفحات الطفولة والذكريات، اختطتها ذاكرة يعقوب الذي تربى بحضن جدته التي كانت ترعى الصغار قبل انضمامه لهذه الفرقة من المجموعة، فقد تذكر قصة جدته عندما زرعت في حوض الزراعة أزهارا

جميلة لتزين المكان، وجعلت في حوض آخر ثلاث زهرات ملونة ومتميزة عن باقي الزهرات، ويعقوب الذي أوصته جدته بعدم العبث في حوض الزراعة، لكنه في أحد الأيام قطف من الحوض زهرة بسبب الفراشة الصفراء الفاقع لونها التي وقفت على الزهرة الحمراء القانية، فجذبته إليها فحاول أن يمسك الفراشة قبل أن تطير فقطع الزهرة، وركض إلى الغرفة ليبحث لها عن منزل صغير، حيث منزل الدمية فأخرجها ووضع مكانها الفراشة الصفراء الفاقع لونها ليلهو بها، لكن بعد ساعات عاد ليلعب مع الفراشة فوجدها قد ماتت، فركض باكيا إلى جدته وأخبرها بما حدث، فقالت له: يا يعقوب، إن الله خلق الفراشات زاهية ومفرحة للنظر، لكي نتمتع بالنظر إليها فتسرنا ونشعر بالفرح، اذهب إلى الحوض واتركها هناك قرب الزهرات فهو موطنها، لكن يعقوب لم يعرف ماذا يفعل فنبهته مرة ثانية عندها شعر بالذنب وبكى أمام جدته قائلا: أنا آسف يا جدتي، لقد قطعت الزهرة.

فالإدراك أن نملك حلولا مقبولة كأن أن نذهب إلى التل والعيش هناك بضمان أن نعود إلى المزرعة مرة ثانية تكون موطننا متى نشاء فلا نبيعها ولا نهجرها، هذا كان رأي يعقوب، وأما خلاصة رأي رفقة فقد تمثل بأن هنا مجموعة عقول وقدرات تجتمع في المزرعة، فالأفضل قبل أن نترك المكان أن نتفق على شروط كمبدأ لحل مؤقت، فإذا وجدنا الشروط ملائمة نوحد الرأي ونقبل بداني قائدا لمجموعتنا، ويجب أن يتفهم ويتقيد بالشروط، كي لا نخسر الفرصة التي عرضها علينا بالسكنى في تل فرنك وألا نخسر المزرعة أيضا، ونكون حينها قد حافظنا على جانب توحد المجموعة وتماسكها، وعدم التخلي عن بعض أفرادها، لقد تم طرح هذه الوثيقة

على داني من خلال رفقه التي لعبت دور الوسيط بين مجموعتها وحبيبها، لكن المثير في الأمر أن الشروط أتت ملائمة تماما لفكره داني.

(14)

التزمت رفقه باقتراحها بأن تجمع بين تل فرنك وتل أفكارها، ومن أجل إنجاح خطه العمل اقترحت شرطين لإنجاح الاتفاق، فكان الشرط الأول يتمثل في عقد عمل يشمل المجموعة وبضم كل أفرادها كجزء يحق له الامتلاك طوال فتره معينه يحددها داني، ويمكن أن تكون شهوراً أو سنوات، ثم يُجدد العقد بحسب ما تقدمه المجموعة من خدمات كخدمات يفرضها الواقع في المستقبل، وبما يحصل من تقدم، لذلك تعلق رفقة الشرط بالمدة الزمنية محدده كبداية كي تتأكد من تأقلم المجموعة في البيئة الجديدة، وثمة عوامل قد لا تكون مساعده على التأقلم والتعايش فيؤدي ذلك الانتقال من حال لا بأس به إلى نكوص أو تراجع، فكتبت في العقد أن ليس دخولنا فيها مثل خروجنا منها، فإذا التقينا وتقدمنا بالعمل فأصبحنا بحال أفضل من قبل، فسيصبح من حقنا التملك، ونحن لن نتقاضى أَجرنا بالعملة، بل نعمل حتى نملك جزءاً من الأرض مقابل العمل، وهذا الشرط يلزمنا جميعا وقبل غروب الشمس سوف نكتب العقد.

والشرط الثاني ينصّ على أن نبني حول الشجرة النادرة جداراً يحيطها كزاوية حتى إذا رغبنا بقراءَة الكتب نقرأها داخل هذه الزاوية، فتكون الشجرة النادرة هي العنوان الفكري كجدار محيط بها يحمي موروثاً لمعاني الإنسانية، فصاحب الفكرة مهتم برقم معين للعدالة، فعلينا مثلا كي نحصي كم أخٍ لك بالدين، علينا أنْ نعرف كم أخٍ لك في الإنسانية، ولكي يكون الشرط مقنعاً في التعامل بحسب المبدأ، وأن نلتزم بالحقوق في اتفاق مسبق كمرحله انتقالية، فنحن لا نعرف ما سيحل مستقبلا وماذا سيحدث حتى وإنْ كانت الرؤية واضحة، فبعض الكوارث تحدث بفعل البشر، وبعض الكوارث تحدث قضاءً وقدراً.

لقد أظهرت رفقة الوعي الكافي بالمنطق من أجل الإقناع، ليتم الاتفاق على الشروط بإقناع وقوه وصِّياغة نصٍ صحيحٍ، فلا تختلف وجهات النظر حول ما تكون عليه الأمور في المستقبل من تقلب الواقع بالمتغيرات، فقد تستجد حوادث ليست في الحسبان، إن العديد من المعيقات المتنوعة إذا لم تؤخذ بالحسبان تعترض طريقنا، فتحول المشروع

الناجح لمشروع فاشل إذا نحن أسأنا ضبط أداوته الملائمة، فلا نريد اعتماد أساليب غير علمية، ويجب أن تكون الفكرة مؤسساً لها بشكل ثابت وناجح.

obeikandl.com

(15)

عاد داني لزيارة المجموعة في الكيبوتس، ووصل إلى الطريق الفرعي ولم يكن معبداً، وهو مشتق من طريق جبلية مليئة بالحجارة. طريقٌ وعرة، ولم تكن ثمة إنارة سوى ضوء المركبة، في منطقة معتمة خالية تقريبا من السكان، لا يُسمع فيها سوى صوت نباح الكلاب، قصد داني بهذه الزيارة الثانية بناء جسور مع المجموعة من اجل الاطمئنان والشعور بالثقة المتبادلة بين الفريقين، فالفريق الأول قائد يمثل فريق، وهو رجل حكيم يعادل مجموعة رجل حكيم تقريبا يعادل مجموعة والفريق الثاني مجموعة تمثلها قائدة هي رفقة، التي تفاجأت بعدم اتصال مسبق أو إخبارها بالزيارة، فشعرت بارتباك وخرجت من غرفتها لاستقباله بشوق. وكان لديها رغبة وميول لرؤيته، فاجتمعت به بعد استقبالها له مع مجموعتها، وتحدث إليهم بمقدمة لفتح باب الحوار، وتطرق داني خلال اللقاء معربا بأن ليس من السهل أبداً التغيير والانتقال من مكان إلى مكان، ومن ماضٍ إلى حاضر لتثبيت فكرة وتوثيقها، وتنمية الفطرة بالفكرة

وبحث الأهداف وأخذ الأدوار، وتحمل المسؤولية والقبول بنجاح أو فشل، فقد ننتصر على رغباتنا أو ننهزم أمام ضعف نفوسنا وذلك يتطلب منا التجربة، وقد ندخل من خلالها إلى الحاجة إلى تجارب أخرى لا نعرف العمق فيها، لكن علينا أن نتأكد أولا كيف نستنتج واقع الأمر قبل الدخول بالتجربة. فعندما نفكر في ترميم مخلفات الماضي، نحتاج إلى عزمٍ وإيمان جازم بتحقيق ما نصبو إليه من أجل المستقبل، وقد تتحول الأهداف لتشمل العام كالخاص، فلا نستطيع في وقتنا الحالي التركيز فقط على الخاص، ونترك حولنا مجموعات في محطة انتظار، فلكل فريق عمل، وثمة عاملون يبحثون والمنافسة أمر مأخوذ بالحسبان، ولها دور كبير ومهم في التشجيع على العمل، وأثناء حديثه حصلت مشكلة في مصباح الكهرباء، فأخذ النور يضعف والمصباح ينطفئ ويشعل، وداني يوجه وجهه وهو يتحدث، وينظر بعيون كل شخص كناية عن الاهتمام بالجميع وتوزيع النظرات أثناء الحديث، وكأن الضوء يتبادل معه النظرة، مما شجع المجموعة على الدخول

والمشاركة في الحديث بسبب ما فعله الضوء من جو ملائم بدفع الكلمات من أفراد المجموعة، والتحدث بصوت مرتفع بعد الصمت الذي حظي به داني في المقدمة ثم انقطع الضوء فصفق الجميع ثم أحضر بعض الأفراد منهم مجموعة شموع لتضاء أمسيتهم ومتابعة سير الفعالية واستكمال الحوار.

أحضرت رفقة بعض الكعك المحلى وبعض القهوة مما ذكر داني بالقهوة التي طلبتها منه والدته فهي تتناول كل يوم ثلاثة فناجين من القهوة العربية وذلك لوصفة طبية وصفها الطبيب لتخفيف السوائل بالجسم فهي تساعد على ذلك.

قالت رفقه: لكن هذه قهوة تركية فضحك الجميع.

أما داني فقد وجد في الكلمة معنى آخر، استمتع الجميع بوقتهم، شعر الفريقان بأنهم يتبادلون ويتقربون من بعضهم البعض أكثر، وقد تكون لبعض الجلسات من هذا النوع اثر لنجاح وتسهيل الصعاب، فمن المهم أن نعتني بالأجواء أثناء الحوار. أستأذن داني من المجموعة وأشار إلى الوقت بأنه متأخر

obeikandl.com

كادت رفقة أن تعرض عليه أن ينام تلك الليلة في الكيبوتس، فالوقت متأخر وأن صوت الذئاب مخيف بالخارج، غير أن داني يود العودة إلى منزله، وقبل تحية النوم طمأن داني الجميع بأنهم سيجدون إن شاء الله كل شيء على ما يرام، وترك مع تحية النوم الشعور بالأريحية، رافقت رفقة داني إلى الباب فودعته حتى أنها أبدت له اهتمامها بالمفاجأة؛ لأنها قد تقلل من أن يتكون بالمجموعة آراء معارضة، فمثل هذه المفاجئات قد تسدي خدمة كبيرة وتخفف من حدة الاختلاف في وجهات النظر. داني لم يتعجل لحظات ينفرد بها برفقة، فلعلها تتطرق لشيء خاص كأن تقترح الارتباط أو تلمح بذلك، لكنها تنتظر من داني أن يحرك ساكنا أو يبدي تعاونا في هذا الأمر، وعندما خرج داني أوصدت الباب خلفه، فعلّقت على هذه النظرات بهمسات داخلية بنفسها الكثير من العبارات التي لا تغيب، لكنها أحيانا تختفي حين حضوره. وأخذت رفقة تتساءل في داخل نفسها وسرح بها الخيال: ماذا تريد أن أقول لك يا عزيزي داني؟ فأنا لا أحفظ شيئاً من صفحة الإنشاء، ولا أجيد سوى

الضبط ولا أعطي سوى الأمر كمسئولة.

كيف لي أن استبدل الصفحة كما تريد لتقرأ فيها ما يعجبك، وما يعجبك الكثير يخرجني من الدائرة الكبيرة إلى دائرتك الصغيرة الجذابة، المحها عن قرب في نظراتك، فأرى الفوضى تعمّ المنزل والدمى في كل مكان، وأغراضاً لم يتم ترتيبها ولا تصنيفها وزوايا مشغولة، وكتباً وأقلاماً، آه، يا الهي! وهناك نظرة مختلفة في مختلف الأغراض في المنزل بقرب زاوية الجلوس كلوحة الفعاليات، آه، ما أغباك يا حبيبي! لم أتخيل نفسي من قبل تشغلني هذه النظرات. ولا اعرف ماذا حدث لك في الطريق التي تتذمر منها، أما داني فكان هو أيضا يسرح بخياله ويحدث نفسه وهو عائد ويفكر في أمر رفقة، ولا يشغله عن التفكير بها سوى تلك المطبّات في الطريق، ويتساءل داخل نفسه: لماذا أتذمر منها؟ فثمة مطبّات هوائية، يبدو انه لا مفر من المطبّات والأفضل أن أتجاوزها.

وأخذ يفكر بشعور رفقة تجاهه قائلا: إن تلك النظرات التي بادلتني إياها رفقة كان شكلها غريبا تشبه الكرة يساعدها الشكل بالدحرجة نحوي، ضحك بصوت عالٍ، ويبدو أنني لست خبيراً في قراءات العيون، فكأنها كانت تريد أن تطلب أو تتحدث عن شيء لم أفهمه، كان من المفروض أن أسألها، ستعتقد أني غبي أو متجاهل لها، لكن لا بأس سوف اشتري لها هدية إلى جانب الرسالة التي سأكتبها لها، ولا ينبغي في كل مره أنْ أتعامل بجديه معها، آه، غدا يوم السبت، وهو عطلة نهاية آخر الأسبوع، سوف أذهبُ بعد الصلاة لشراء الهدية، فهناك قرب حائط البراق حوانيت عديدة ومتنوعة سوف تلهمني لشراء الهدية. أنا لا أركز في هذا الوقت ما الهدية التي سوف تنال إعجابها، ليتني كنت اسألها عن الأشياء التي تحب، لقد كانت أغلب اجتماعاتنا عمل، ولم نتطرق إلى أشيائنا الشخصية، لم يكن الحديث متنوعاً، بل كنا نركز في الشؤون العملية للفريقين، وتأمين كل ما يلزم من أدوات لتجهيز المشروع الذي أخذ جلّ تفكيرنا ووقتنا، وصل داني إلى البيت متعباً

لكنه لا يشعر بالنعاس، فجرب أن يقرأ القراءة التي تساعده على النوم، لكن لا رغبة له بالقراءة، فتناول القلم وخط هذه العبارات:

لو بحث الإنسان عن صديقة قد يجد العديد منهن لكن لن يجد بسهولة ما يناسبه، لكني دون أن ابحث وجدتها، وهي بنفس الطموح والقدرات التي كنت أفكر فيها كزوجة للمستقبل، هي نادرة كالشجرة النادرة، لقد أصبحت أملك أثمنَ قطعةٍ نقدية وأفضل صديقة صادفتها حتى الآن، وسوف أنتقي صفحة جميلة، واكتب إليك أيتها العزيزة، فقد لا يحتاج الأمر أنْ يكونَ المرءُ شاعراً إذا عبر بصدق عن مشاعره، ثم أطفأ المصباح ورفع الغطاء على وجهه كي ينام.

(16)

أما رفقة، التي حاولت أن تتحدث قليلاً قبل النوم إلى مجموعتها، فهم يشاكسونها ويعلقون عليها ببعض الكلمات، مثل: داني لطيف، يبدو أنكِ تعتنين به جيداً، أنتِ ترافقينه حتى الباب، ويضحكون، قالت رفقة: ليذهب الجميع إلى النوم، لقد أصبح الوقت متأخراً. لكن لا رغبة لهم في النوم.

قالوا: سنفعل لكن على شرط أن تحدثينا بشيء مغاير مما تتحدثين به علينا كل يوم.

أخذ يوسف يحدث يعقوب زميله سائلا إياه:

كم قرأت من الكتب والقصص ووعيت أبعادها وتجولتَ عبرها ؟

يعقوب: قرأت الكثير واستوعبت القليل.

يوسف: اشعر بالعطش، هل تحضر لي كوب ماء؟
يعقوب: انتظر، لن أحضر لك الماء بل عصير التفاح.

وبعد ذلك انتقل كل إلى فراشه.

أما داني، فقد أفاق من نومه قبل الخامسة فجراً، وعندما يحين موعد الشروق لا بد أن يمسك قلمه ويكتب سبعة سطور لرفقه يفكر في كتابتها من قبل، وهو في لحظات التأمل تذكر قول الرجل الحكيم واخذ يكتب ما يتذكره:

1-ممزوجة نسمات الفجر برطوبة باردة، الآهات تمر بلمسة الجسد.

2-لا تلد الشمس مرتين هلالاً رغم غيابها مع البدر في ليل سعيد.

3- نؤمن حبيبتي أن لكل يوم شروق وغروب.

4- في متوسط عمر كل إنسان يجمع الشتات بصندوق الصور.

5 -الأشياء المبعثرة تشبه الزهور في بستان، ونستطيع تنسيقها عندما تجف.

6 - يركع الوعي حين يدرك وعاء المعرفة.

obeikandl.com

7 – كم من الفرسان اعتلت الجواد فتمسكت. وكم من العشرات سقطت من نقطة الانطلاق.

وكتب رسالة لرفقة:

حبيبتي، عندما كنت أتجول في ساعة الفجر، مشيت مسافة إلى البحر فوق الشاطئ، في ذلك الوقت تكون الرمال بلون المحبرة قبل ظهور خيوط الشمس، ويميز الموج لونه الأبيض.

عندما يصبحُ الموج صفحةً بيضاء تعبث بالرمال. تشبه أول يوم تمطر فيه بعد صيف جاف، فالوجه الجميل للصيف يغتسل، وبقايا الكحل العشوائية من العين تقطر بقطرات الصيف الأولى قطرات كبيرة، في حجمها وفي سقوطها أبطأ، وفي كثافتها اقل، كي ترطب الغبار قبل مسحه، وتحمله من الجو إلى الأرض دون أن تشعر الريح بثقل، فيكون الجو صافيا كما أراه في صفاء ناظريكِ بعد قسوة وحرارة رائحة العشب المبتل بظفيرتيه.

تجعل العصافير تنفض الريش المتجمد تحت المطر ليُعيد إليها رشاقتها، وهناك جلست أمام الموج الذي يتبعه موج، وصوت البحر يردد صوت الأمواج بمقام الصوت المرتفع العالي تارة وبمقام صوت رقيق تارة أخرى. نحن عندما نحنو يتغير فينا الصوت، فيغدو جنوناً هناك.

حيث جلست أراقب الموج في وسط البحر تذكرتك، وسرحت خيالاتي في عبق رحيقك.

آه يا رفقتي، شعرت بجوع وأنا جالس هناك أثناء مراقبتي للموج، فأخرجت من حقيبة الطعام، فكانت تفاحة ثم أرجعتها إليها، لا رغبة لي بتناول التفاحة وحدي وتمنيت لو كنت بجانبي تشاركينني زادي وزوّادي، أمسكت ريشتي ثم رسمت بها ما يشغلني، رسمت عينيك الجميلتين، وثغرك الباسم، وضفيرتيك، وها أنذا أكمل بقية صورتك، لقد أصبحتِ أنت شغلي وفكري، لقد تحركت طاقة جسدي وأفكاري، افتقدك يا جوهرتي في هذه اللحظات، كان ينبغي أن نتبادل القبل ها هنا، وألا أتنفس وازفر وأتنهد وحدي بل

بجوارك، اشعر بأنه من المؤلم انك تتعاملين مع مشاعري بجدية، آه، يا الهي! افتقدتك الآن وكلي لوعة.

مع وافر المحبة والاحترام والتقدير، والى اللقاء يا حبيبة الروح.

أما رفقة التي جفاها النوم بعد زيارة داني ومفاجأته إياها في الكيبوتس، فقد أصبحت غير مرتاحة، وتشعر بوجع في الرأس، فهي تعاني من صداعٍ حين استيقظت وكأن عيونها تخط هالاتٍ سوداء شعرت بأن مظهرها غريب، فأخذت بكأس ماء مثلج، وراحت ترطب حول عيونها، فقطرت من يدها بعض قطرات الماء على ملابسها، وعندما انتهت وجدت القطرات تتحول إلى قلوب حول دائرة الكأس،

آه، يا الهي! أشعر بأن داني يتألم بشدة لم يكن ساورني هذا الشعور بالقلق من قبل، لم يسبق لي من قبل أن حلمت أو توسدت الأفكار مكان وسادتي، كي تطيع مخيلتي، ما بين النضج والمراهقة معاناة تفوق الروعة، فثمة رشد يجعلنا بحالة أفضل في

obeikandl.com

النظر إلى الطرف الآخر، نشعر بأننا نريد خوض تجربة جديدة، ونرتكب الحماقات بمحاولة إخفاء هذا الشعور الحارق، وعدم البوح به، نتظاهر أننا عقلاء ولا ينبغي ألا نتحدث بهذا الحب الذي نفتقده، فلماذا نعتبره خرافة؟ وهو شيء قد نجد فيه الكثير من الأنس والود، فثمة استجابة لهذا الأمر في الكون الجميل في صوت أو صورة، في لقاء وابتسامة، قد لا يتعمدها المرء لكن ينتبه إليها، يا الهي! أكره أن أكون لوحاً خشبيّاً بالرغم من أن العمل يتطلب مني أن أكون، لا أكاد اصدق أن الهدف فقط من زيارة داني الاطمئنان على المجموعة، وكأني خارج ما يتحدث عنه، لماذا لا تكون الزيارة من أجلي؟ لكنها في الظاهر بدت بشكل مختلف، ها أنا قد تأخرت حتى أني لم أَقُمْ بترتيب وتجهيز ملابسي أمس، يكاد يحدث شيء في النظام الروتيني عندما يحدث شيء في النظام النفسي، هي ردود فعل طبيعية، لكن أين ذهب حذائي؟ لا أجده أسفل السرير، ربما سحبه ذلك الكلب الصغير إلى الخارج، يا روني، هل رأيت الحذاء، روني يحضر على الفور ويحمل

بفمه الحذاء، وتخاطبه رفقة: آه! أيها الغبي، كم مره أخبرتك بعدم العبث في الأشياء؟ انظر ماذا فعلت، لقد هشمت الخيط هيا أغرب عن وجهي أخشى أن يكون ما تبقى من هذا اليوم أشياء غير مرغوب فيها.

يعقوب يصرخ لقد تأخرنا ماذا تفعلين كل هذا الوقت يا رفقة؟

- انتظر لقد سحب روني الحذاء.
- وهل وجدته ؟
- نعم، لكني لم أجد بقية الخيط، لقد قطعه الكلب روني وسوف أبحث عنه.

يعقوب وباقي المجموعة يبحثون كلهم عن خيط الحذاء، وفي آخر لحظة قبل أن يجدوه قالت رفقة: انتم أفضل فريق تعرفت عليه، فضحك الجميع قائلين لرفقة، هذا لا يعني أن نغفر لك هذا التأخير ثم انطلقت الفرق إلى العمل.

obeikandl.com

(17)

داني الذي ما يزال في مكانه مستغرقاً في التأمل يحضره في هذه الجلسة العودة إلى الذكريات مع صديقه الحكيم، بعد أن تخيل بأن العصا قد أشعلت الحرارة في كفتيّ يديه، فتذكر صفحة من الكتاب بأن الإيمان يثبت بتوثيق العلاقة بين الله وبين قوم يؤمنون، ففي بعض النصوص التي تحمل البيان فثمة نصح بتصحيح السلوك وطاعة الله بما يأمر، وهي تتوافق مع أفعال الإنسان، فثمة قسم من القوم قد ضل سعيهم، ويظهر ذلك من خلال القصص وبعض الأمثلة الدالة على الضياع بأن كان سبب الضياع عدم التصديق بما جاء، مما أضعف البصيرة، فخذلوا أنفسهم، فالشريعة شيء، والطقوس شيء آخر، لكن الشعب الإسرائيلي يعتني بالطقوس كعادات، ويمارس الأساليب المختلفة التي لا تنتمي إلى الشريعة، وليس الشريعة نفسها، شعب يقدس الطقوس، لذلك تظهر الكثير من المُخالفات مما أدى إلى حذف بعض الصفحات الصحيحة التي لم يستطيع الشعب اليهودي تنفيذ ما هو

مطلوب منها، مثل الاعتراف بالذنب والكف عن ممارسة الإدعاءات الباطلة المضافة على طريقة موضوعة من قبل أفراد مخالفة تماما لما جاء في الشريعة، التي تدعو إلى الكف عن البعث، كذلك حملت لهم التهديد والعقاب لتنكرهم والسخرية من الأمر، وهناك مخالفات معروفه وضَّحها الله سبحانه وتعالى في كتاب جاء بعد كتابهم، فما تهرب منه الشعب اليهودي من حقائق دوَّنها الله لهم مرة ثانية، كي يُذكِّرهم بعدم الطهارة في القلب بأيمان جازم والتسلط باللسان بالسخط والتمرد على أغلب الرسل، وعدم الطاعة، وفهم الرسائل الموجهة إليهم بالامتثال والتصديق، إذ كانت تؤكد لهم صفحاتهم بأنهم جعلوا أنفسهم وكأنهم أصحاب هذا القول الذي يتصرفون ويزعمون أنه من عند الله، مثل تحريم شحوم البقر على أنفسهم، وتحريم ما هو حلال في الشريعة، ولقد تمت معاقبتهم في جزء بالضياع والتيه، وسوف يكون ثمة عقاب آخر لجرأتهم على الله ومكرهم بالرسل.

كان داني في حيرة شديدة وهو يدرك حقيقة كل هذه التقلبات، التي مر فيها الشعب اليهودي، وبأن

ثمة شعارات وأسماء انتقوها بأنفسهم وثبتوها كي يغيب اليهود عن الحقيقة. رجع داني من جولته التأملية إلى السرير، وكان متعبا فرقد في سريره، وشعر بشيء من البرد بعد أن مضى عليه ساعة متأملا بمشاعره، فاليوم هو يوم السبت، لا يفضل داني فيه الذهاب إلى أي مكان سوى زيارة حائط المبكى والصلاة، فبعض الحقائق الضائعة كانت هَمّ داني الأول، وهي الانشغال ببعض القضايا لشعبه، وكان يتساءل: كيف يتم إعادة الصفحات المفقودة من الشريعة؟ لعل فيها الرشد ليخرج بني قومه من هذه الظلمات التي سوف تستمر، فمن قبل صفحاتهم نافقوه وكذبوا الرسل فيها، وهم يترقبون المعجزة التي سيظهر فيها نبي جديد. تناول داني كوب القهوة ثم أسرع كي يغتسل بالماء الدافئ كي يستعيد نشاطه، ثم ارتدى ملابسه الأنيقة تراوده فكرة شراء هديه لرفقة لكي يتقرب منها أكثر ، ثم خرج من المنزل وركن السيارة بالموقف، ففي مثل هذا اليوم المقدس لا ينبغي أن تسير المركبات في الشوارع، ومن أراد أن يذهب إلى أي مكان عليه أن

يمشي سيرا على الأقدام، وكان مشغولاً أثناء السير في الطريق في التفكير بنوعية الهدية التي سوف تُعجب رفقة، لكن سرعان ما وجد الحل، فالمكان الذي سوف يذهب إليه مكتظ بالحوانيت التي تقتني أشياء عديدة ومتنوعة، وعندما وصل داني الدَرَج الذي يؤدي إلى باب العامود، وكانت كل درجة من درجاته لا تخلو من السياح الزائرين، يقصدون التجوال والسياحة في السوق، قال داني: يا الهي! اليوم هو يوم السبت، والمكان مكتظ بالناس، وها هي الحافلات من القرى الشمالية تعج بالحركة في الشوارع والساحات، يا الهي! أكاد اختنق بين هذه الجموع، وصل داني حائط المبكى في حال يرثى لها، فملابسه الأنيقة تشرّبت بالعرق بسبب حرارة الجو المرتفعة ٍوالاكتظاظ، وعندما وصل حائط المبكى حمد الله وشكر، ثم اقترب من الحائط ووضع على كتفيه الوشاح الأبيض ولفّ يده بالشريط الأسود ووضع النور على جبينه وبدأ بالصلاة، ثم قرأ: إلهي! اسمها الخطايا؛ لأننا نمشي إليها بأقدامنا، ونبادر إليها بتفكيرنا، ونستمتع بكشفها، ونتعمدها

بذكرها، ونكررها حين نسمعها، ونقلدها حين نعجب بها، فإذا هي كذلك فاغفر لي بكل خطوة أتيت بها مشيا على الإقدام إليك؛ كي اطلب منك الصفح عني، وبدِّل لي الخطايا بخطوات تحل مكانها امشي بها إليك، لترضى عني مبادراً بالدعاء فتقبله مني، وأقدم بين يدي الذنوب لتعفو عني، واجعلني شاكرا لك دوما على نعمة الجسد والنظر والسمع، فعندما أوجه وجهي إلى الحائط الأصم أوجه قلبي إليك، فمن اسمك الرحيم شققت الرحمة ووزعتها بالتساوي على البشر، وهذا حظي منها أنزلتها علينا كما تتنزل الملائكة على البشر، فتخبرك عنا وتأخذ منا أقوالنا وأفعالنا كل يوم، لأنك تحب أن تسمع عنا ما تريد، كي تُعطينا ما تريد بالقدر الذي تراه، ربي عندما انظر إلى عين ترعاني اعلم أن عين فوق عين الشمس لا ترصدها الحواسيب، وعندما استمع لكلماتك أدرك بأن موجات لا تؤلف سوى لقلبي الحنيف، عدلت عندما بلغتنا أن النار تحرق جلود من كفر بوجودك، ولم يصدق بأن الله هو رب البشر ومولاهم، اهتديت إليك بفكر صحيح حتى

سلم قلبي وروحي وجسدي من حروق الحقد وظلمة الجهل، فإذا كسل البدن سكنته الأمراض، وإذا كسل القلب عن ذكرك سكنته الأوهام، وإذا كسل العقل عن التفكر بك سكنه النسيان والعجز، ربي! لقد تركت في شقوق الحائط مسودة من حبر العمل، وذلك حتى تمنحني صفحة بيضاء، لأكتب لك فيها ما تحب من الاستغفار، إن فريقاً من قومي يسلقون فريقاً آخر بسوء الكلام، ويجعلون في دربي إليك حجارة كبيره لا استطيع زعزعتها، وأقوال عقم لا استطيع ترجمتها، وتهم دفينة لا اقدر مكاشفتها، ويغلقون نافذة أنت فاتحها، كي اسمع وارى من السنن الأولى في الأرض التي أموت وأحيا فيها، ربي لقد أمرتهم بعدم القنوت لكن الدائرة التي تدور على العباد الذين أطلعتهم عليها قاربت أن تكتمل بلون الشفق، قالوا هي سنتك بالأرض، وهو أمرك حتى تحفظ عليهم دينهم، وأن الصخرة التي تزلزلت تحت أقدام النبي كان حلم أراد الوصول إليك في السماء كل البشر، حالمون بالوصول إليك كي يعيشون قريبا منك، فالناس تؤمن بالوهم والخيال، وهذا أصبح موجوداً

في عصري، فنحن نحتاج إلى بابك قرب الإشارات، كي نستمر إلى الدرب المستقيم دون تقلب وجهي من قبل ومن بعد، فليس لي قدرة على هذا العمل، فلا تتركني وحدي، إن القرابين التي تتقرب بها إليك البشر في الفداء كي لا يعتاد البشر ذبح بعضهم البعض تقبلها من قوم دون قوم، وأشعة الشمس فوق الحمراء التي يجتنب الظهور في وقتها الناس بعضها حروق من بعض، فكيف تقاس إذا كانت النار يومئذٍ! وما الستر الذي يقي الوجوه يوم تبيض وجوه وتسود وجوه! وإذا كانت الخطايا زبد يغطي وجه النهر ففي أية سرعة يجري حتى لا يلحق الزبد النقاء أو يتراكم فوقه؟ إن أزيز الجليد يتكسر بلمسة من شعاع الشمس، بحرارة منها فكيف نسقط بعد كسر الأزيز؟ وإذا عوت الذئاب تجمعا على فريستها فهي تعوي اليوم فراقا من الخطر المحدق يشتعل بداخلها وحولها.

(18)

داني استغرق وقتاً كافياً في المناجاة وشعر بالجوع والتعب وبشيء من النعاس، فلما انتهى خلع الرداء الأبيض ومشى قليلاً إلى مكان يجلس فيه ليستريح، فغلبه النعاس وهو يحاول مقاومته، كان جسده ساكنا وأطرافه باردة، يشعر بارتياح وبدفء الأيمان، وبعد مضي فترة لا بأس بها نهض ليستعيد نشاطه ثانية، فثمة مسافة يجب أن يقطعها وهي طويلة، للعودة للمنزل سيرا على الإقدام، ثم خرج من مكانه إلى الممرات ذاهبا إلى السوق، فتلك الحوانيت المتقاربة توحي إليه بشراء هدية مناسبة، فالعديد من الأشياء المتنوعة وأغراض أمامه توفر عليه عناء التفكير بانتقاء الهدية، لكن تعب داني وشعوره بالجوع ذهبا به إلى مطعم صغير شعبي، كي يتناول وجبة الصباح فالفلافل والحمص الذي لها طعم مميز في ذلك المطعم الصغير، استمتع داني بوجبته اللذيذة، وعندما آتى إليه صاحب المطعم كي يسأله بأن هل تريد شيئا آخر، بادر داني بممازحة صاحب المطعم واستشارته في نوع هدية مناسبة، فضحك صاحب

المطعم، وعرف أنها لسيدة، فأشار إلى حانوت الحلوى، ثم جعل صاحب المطعم يرغِّب داني بها معللا بأن النساء تحب الحلوى، وهي لطيفه كهدية بسيطة، وتجعلنا نشعر بالفرح، بعد لحظات خرج داني من المطعم إلى الممر الضيق، فوجد الناس في زحمة مرّور حتى تكاد الأجساد تلتصق ببعضها البعض، وثمة عربة تحاول الدخول بين الجموع، فوقف مكانه، ووقفت العربة الصغيرة في منتصف الممر والناس على جانبيها بازدحام، فلما رأى ضجيج الناس تذكر أهل السيل العرم، يقفون بأتباعهم من الظالمين حول السيل والفزع في قلوبهم والخطر محيط بهم، ولا سبيل لديهم بالنجاة، قال أولهم لآخرهم: هل نثق بعمل احد منكم يقطع بنا الطريق فنجعلهم أمامنا يعبرون بنا هذا السيل العرم الذي لا يطاق؟ فوافق الذين ظلموا أنفسهم، ولم يقدموا شيئاً بين أيديهم، فلما عبر الصالحون أمامهم وهم من خلفهم، نجا الصالحون منهم، وغرق الظالمون، فلما خرج الصالحون شكروا الله على إخراجهم من هذا السيل... وبعد أن مرت العربة،

أخذ داني يراقب عن كثب حانوت الحلوى، فتقدم بخطوات نحوه فوجدها أشكالاً وألواناً، فمن المؤكد أن لكل قطعة منها مذاق، لكن ما حيّر داني أن أخذ يفكِّر بالصنف الذي تفضله رفقة، لكنه انتقي قطعا متنوعة، فإذا لم ترغب بصنف فقد يعجبها الآخر، طلب داني من صاحب الحانوت أن يشكل مجموعة حلوى وأن يضعها في علبة مزينة ويربطها في شريط جميل، عندها ابتهج ولشدة بهجته لم ينتبه إلى حجر صغير ينتظره في عتبة الباب، فسقط وتأوّه وكادت أن تسقط العلبة وتتناثر حباتها، وعاد أدراجه إلى بيته.

obeikandl.com

(19)

أما رفقة فبعد قضاء يوم صعب للغاية فور فقدانها لحذائها صباحا بدأت تجهز نفسها لرحلة إلى الجولان، وهي في حالة الصداع الذي لم يفارقها منذ ليلة أمس، وكانت تنسق العمل والمواعيد مع الحافلات التي سوف تقل الجنود إلى الجولان، ففي مثل هذا الوقت في لكل عام تتجهز المجموعات التي هي مسئولية عنها، وتعدّ البرامج من أجل التخييم والتدريب هناك، لكن هذه المرة كان مزاجها مُعكَّرا، وتشعر بعصبية زائدة متأثرة بحموضة في المعدة، فهي لم تتناول شيئا منذ الصباح، وتقلصات المعدة مؤلمة، فحاولت أن تبتعد قليلاً عن الضجيج وتتناول كأسا من الشاي، فجلست في زاوية الحائط وأسندت ظهرها إليه، لكن سرعان ما تفقد غيابها مَن يسجل أسماء الجنود، فبحث عنها فوجدها بحالة ضعيفة محزنة لم يعتد أن يراها هكذا من قبل، فتقدم نحوها بهدوء وحاول أن يصنع محاولة اتصال غير مباشرة بها، فجلس بهدوء قربا منها بنفس الطريقة التي تجلس فيها، لا يعرف كيف يبدأ، ففي مثل هذه

الحالة لا يرغب العديد من الناس بالتحدث، فبادر يعقوب بالحديث مع رفقة قائلا: لقد كان مزاجك سيئا هذا اليوم يا رفقة، لقد شعرنا بذلك.

قالت: لا، لا، لكنني مشغولة بكيفية إقناع داني بالاشتراك في هذه الرحلة أو هل يتقبل هذا الأمر كوني سوف امكث مع المجموعة حوالي أسبوع بعيده عنه، فقد يشعر بعدم اهتمامي به وأنني أحافظ فقد على الاهتمامات التي هي للمجموعة، لكنه عملي، لقد حاولت الانتظار أن يبادر إليَّ بكلمة مباشرة تحدد هذه العلاقة التي فيما بيننا بإطار صحيح، لكنه لم يتطرق إلى ذلك، وقال بأنه سوف ينقلني للعيش معه في تل فرنك وسوف يحدثني عن الشجرة النادرة، ويعرِّفني على الأشياء الخاصة به، لقد سئمت الانتظار كذلك سئمت التضحية، فلو اخبرني بما يريد كنت افهم ولا أبقى على هذا الحال، قد يساعدنا ذلك على اجتياز هذه المرحلة العالقة من التردد والتخوف، لقد أصبح يعرف عني كل شيء وعليه أن يقرر ماذا يريد فمن الصعب التضحية بالفريق والعمل، فشتان ما بين التجربة للمغامرة

والحقيقة للمناظرة، فكونه يريد الحصول على شيء مميز لا بد وان يعتري دربه العقبات، وحتى يصل فمن المؤكد أن تدوس أقدامه الأشواك.

يعقوب شعر من خلال كلمات رفقه وكأنه قطف من الغيم وملأ مقلتيها بشيء من الدمع، لقد بكى معها وهي تبكي، فهو يدرك دور الشخص المسئول ويعلم جيدا قيمة الكلام الذي تقوله، فردّ عليها: لا تتألمي يا رفقة، فإننا مها بذلنا من جهد فإننا سنشعر بالذنب وبأننا مقصرون، فمنا من ولد ومنا من تزوج وكبر في هذا الكيبوتس، ومنا من سيرحل منه إلى العالم الآخر، هل تعلمين يا رفقة ما أثمن اللحظات عند المرء؟

رفقة: لا، يا يعقوب، لكن لا بدّ أنْ ثمة لحظات جدا مهمة.

يعقوب: هي لحظات الاحتضار، هي أثمن لحظات يملكها المرء في حياته، لكن من كان يستطيع الكلام في أصعب واهم اللحظات فلا نجده ابد يهتم بها لنفسه، هو يضحي بها للآخر من اجل النصح

وكأنه يتخلى عنها إليه، كي يوجهه، لكن صدقيني يا رفقة لو أن الإنسان يدرك معنى هذه اللحظات في ذلك الوقت العصيب لوجدناه يهتم ويعتمدها لذاته دون الاهتمام بالغير، فهذه القدرة هي وحي تراوده ساعة الاحتضار، فنرى المرء يدقق بالنظر ويدقق باحتضان من حوله بعيونه ويغمرهم بنظراته وبنصحه، فمن المؤكد عزيزتي رفقة أن لم يسبق لأحد أن رحل ووصل ذلك المكان الذي نفكر فيه ثم عاد إلينا مجددا ليخبرنا ماذا هناك في ساعة الاحتضار، فإن العالم المجهول الذي نتطرق إليه لحظة الحزن وكأننا نواسي أنفسنا كما ذلك الذي احتضر فواسى نفسه بلحظات النصح آه يا رفقة ! فأنا أعني ما أقول لك، وهل تعرفين أنني منذُ أسبوعين لم أزر زوجتي وأنني مشغول طول الوقت بالحراسة؟ لقد تفاجأت أمس بطفل صغير يرن الهاتف لكني اعرف أن هذا صوت صغيري أورلي، ذلك الطفل الصغير كم أحبه، لقد كان يعيد الاتصال لا اعرف لماذا، ربما زوجتي لم تلاحظ الأمر، فبلغ من العمر أربع سنوات، يتصل ويقول، بابا، بابا،

متى نذهب لنلعب بالكرة، أكثر من مرة كرر هذا العبارة، لكن لم أجد إجابة، والمشكلة أن زوجتي لا اعرف بما هي مشغولة به. نعم يا رفقة، إن ضغط العمل يجعلنا نحتاج إلى من يسمعنا ويحدثنا بشيء مغاير عن أمور العمل، فكل علاقة لها تأثير واهم علاقة نحسّها في الطفل عندما يبكي، نتأثر بالبكاء ونحن ندرك لماذا تبكي الشمعة، لكي تبقى مضيئة عندها نفهم. يبكي الطفل بصوت حتى نستمع إليه ونحدد الاحتياج، يسأل ويجيب الطفل نفسه في البكاء ويوجهه لمن يثق به لكن العلاقة مع الشخص البالغ نحسّ بها عندما يبكي، فيجعل كل شخص منا يسأل وينتظر الجواب، من يمسح دموعه؟ لكنها تبقى علاقة الجنسين من ذكرٍ وأنثى تساهم في إيجاد حلول نفسية لا يجد المرء أحيانا كلمات يطلبها من احد تعبر عن الحنان والاهتمام، قد لا نستطيع التعبير عن الشعور فثمة من يملكون مهارة في الحديث دون أن يعيش احدهم التجربة، وثمة فرق واضح، فمن يتألم قليلا فهو لا يتكلم، وثمة من يحبسون المشاعر في صدورهم، لكننا نشعر بارتياح

عندما يصغي إلينا احد، فالشخص المسئول عادةً هو مصغٍ جيد، وقد يعجز أحيانا عن التصريح، وخاصة الرجل، فالرجل إنسان عامل يتكيف بحسب نوع العمل، ومستأجر قد يتقبل السكن في منزل ضيق منقب يشعر بالملل، ومفقود غائب قد لا تقلقه كثيرا غربته، لكن عند المرأة هذا مختلف جدا، فالمرأة في مثل هذه الأمور تختلف مفاهيمها كثيرا عن مفاهيم الرجل، فالرجل يفضل المقاومة السلمية. وهي بالنسبة إليه من أفضل الأساليب التي يتعامل بها، إذ يجد لنفسه أكثر من وسيلة في إقناع المرأة دون أن يشعر بثقل او يتضرر كثيرا نفسيا عندما يريد أن ينهي علاقة مؤهلة بالارتباط بها، يعتقد أنها قد تفشل بسبب عدم استعداده لها، او عدم الاقتناع بها فيحصل النكوص والتراجع، أما عند المرأة فالعنف في الحب والتركيز على هذه المشاعر القوية التي لا تسمح للعقل أن يستشير القلب سبيلها، فهي تعيش المرحلة في داخلها، فثمة اقتناع لديها بأنها إن عشقت مرة واحده فلن تتكرر مثل هذه الحالة النادرة في حياتها مرة أخرى، فإذا عشقت المرأة تضطرب

وتخشى من خسارة هذا المعشوق، وقد يتطور هذا الاضطراب والخوف لحماية هذا العشق بعدة أساليب تكون غير مباشرة وقد لا تستسيغ هذا الأمر، لكنها تنال من سلمية وهدوء الرجل بإفساد العلاقة والتحدي والمنافسة لتثبت جدارتها بإظهار خسارته كامتلاكها، وقد تنافسه فيما بعد في مجالات متعددة كأن لا تغيب عن الأماكن كي تشعره بالندم الشديد بتواجدها بقربه وإهمالها بشخصه، فهي لا تملك سلمية الرجل بالتعامل. وذلك لعدة أسباب:

السبب الأول: أنها تعلم بأن هذا الأمر قد يأتي مرة واحده في حياتها ومن النادر أن يتكرر.

والسبب الثاني: أنها تعيش التجربة متفردة بذاتها بالتعايش والتصور، فتثري لغتها الصامتة بصفحات مكتوبة مرتجله بالردود دون الاقتباس سوى من خواطرها وما يروق لها بالتعبير عن عالمها الذي يحيا بداخلها، وتعيش الأجواء الحالمة بكل ما فيها من مزاجية دون الاكتراث كثيرا بالرغبة، لأن براءة الشعور بالتمسك بمن تحب كشخص كامل مهم

لديها. لذلك لا تتطرق إلى سلمية، فهي لا تستطيع أن تستوعب هذه السلمية والهدوء بالمعاملة أو إيجاد بديل من اجل الإقناع او التفاهم، فهي تعطي كل اهتماماتها بالتركيز على هذه النقطة التي هي المبدأ الأول فيها، فيكون الخيار وحيدا إما الاستمرار أو الفشل.

والسبب الثالث: أن النساء بطبيعتهن متحفظات، والأمر عليهن شاق لدخول التجربة، رغم وجود جذورها في أعماقٍ نفسها، لكن الصراع يصبح قائما بمنع نموها نتيجة قيود العادات والتقاليد والسلوكيات ونظرة المجتمع.

والسبب الرابع : الأكثر أهمية يتمثل في تحقيق الثقة بالنفس من خلال نجاح هذه الخطوة، فالمرأة عندما تحقق ما تريد وخاصة أنها تحصل على ما تتمناه يكون دافعها قويا لتعزز فيه نفسها بأن تفتخر به أمام صديقاتها، وتتعلل أمامهن بأنها حققت الزواج ونجحت بزواجها عن حب، وأنها قد حققت أمنيات عديدة ومتنوعة، مثل: العمل والدراسة والتجارة.

obeikandl.com

كانت رفقة تُصغي لحديث يعقوب ومعجبة بأسلوبه

الذي أراد أن يخرجها به من شعورها الحزين ويبعد عنها لوعة التفكير بحبيبها، فكانت تسمع وتهز رأسها، وتتقبل منه الكلمات، فهي مهتمة بالمشاركة عينها كاتصال من خلال جلوسه بقربها، قالت رفقة في نفسها آه يا يعقوب! أنت رجل رائع فلا يحتاج التعبير في المشاركة بالشعور إلى تعقيدات، فكل سلوك بسيط بريء يكون مقبولا سواء كنت تجيد الحديث أم لا تجيده، فغالباً ما نربت على كتف الآخرين دون التفوه بكلمة، ويجد فيها الآخر شيئا من التعزيز، كذلك هي النظرة، فثمة نظرة طيبة تشعرنا بالاهتمام، وثمة نظره أخرى جارحه تشعرنا بالخجل، وثمة نظرة ثالثة مربكة تشعرنا بالتردد. يا الهي! ما أعظم هذه الجوارح! فلكل حاسة تخصص.

(20)

داني الذي كان يومه حافلاً ادخل قلبه السرور. رجع إلى البيت مرهقا من شدة التعب، ووضع المشتريات على الطاولة، وفكر في أخذ دش دافئ كي يزيل عن نفسه التعب، وراح يدندن كلمات أغنية يفضلها ويرددها دائما بشوق:

قلق بالليل.

قلق بالنهار.

يوم أن غبت.

الربيع والخريف بنفس اللون.

ودون ذكريات أنت نسيت.

بعدك كل العالم حزين.

يذهب اليوم لا شيء فيه.

ويأتي يوم لا شيء فيه.

obeikandl.com

لماذا لم تسأل عني؟

لماذا لا تكلمني؟

لكي تكون كل شي.

ثم تناول بعدها فنجان الشاي ونام مدة ساعتين، وعندما استيقظ من النوم كانت الساعة السادسة مساءً، ارتدى ملابسه وركب سيارته متوجها إلى تل فرنك، فثمة صوت حفيف أوراق الشجرة النادرة يجذبه. فلما وصل هناك فتح ذراعيه وكأنه يضم بذراعيه الشجرة ويحتضن التل.

طاف حول التل وراقب أطرافه، فإذا في أعلاه عش الشنار البري، فهناك شنارة تجمع القش وتصعد به فوق إلى التل، فاستهواه المنظر فصعد إلى أعلي مكان في التل ليراقب صغار طائر الشنار البري، فوجد الصغار يفتحون مناقيرهم جوعا، حيث طارت أمهم لتبحث لهن عن طعام، فلمح غرابا يحوم حول العش، فنزل الغراب على عش الصغار، كاد داني أن يسقط أرضا، لقد تأثر بالمشهد ولا يستطيع تسلق

المزيد لإنقاذ حياة الصغار، كان الغراب يفتح منقاره ويكاد ينقض على صغار الشنارة، لكن الغراب لم يهاجم الصغار ولم يحملهن او ينقلهن، ودعا داني ربه أن يحمي الصغار من شر الغراب، في هذه اللحظات كان الغراب الذي دنا من العش لا يريد أن يهاجم أي صغير، فلما رأى الصغار تفتح مناقيرها معبرة عن جوعها، نزل إلى الأرض ليبحث لها عن شيء تأكله، فلما وجد قطعا من الخبز على أطراف الشجرة النادرة حملها بمنقاره وصعد للصغار، فلما دنا منها كانت الشنارة الأم موجودة هناك، فلما رأته اعتقدت بأنه سيهاجم ويأكل صغارها، فهاجمته في رأسه، فنالت من عيونه وسالت منها الدماء، فبقي الغراب قرب العش وأدركت الأم انه لا يستطيع الرؤية، فجعلت تدس الطعام في مناقيرها، داني الذي يقف ويراقب المشهد ذُهل مما حدث وبقي مده يجلس هناك في أحضان الطبيعة، ها هي الشمس تأخذ الدفء عند الغروب ويتخلل الهواء البارد جسد داني، فلم يتذكر بأن فصل الشتاء في بدايته، شروقه دافئ وغروبه بارد، لم يحمل الكنزة الصوفية معه،

نظر داني من مكانه وجد أشعة الشمس تلمس كل ما حولها وترسم ظلالا وتمزج بلونها البرتقالي لون العشب والتراب، داني مستمتع بشيء من موسيقى الطبيعة، يتنفس الأجواء ولا يقلق بالبرد، وقطيع غنم يمر، وأمسى صوت القطيع مؤنسا بأجراس يصدر عنها صوت جميل.

فقال داني متضرعا لربه: أمست أسراب الطير إلى أوكارها تجمعها، وأمسيت ربي وكل شيء من مخلوقاتك عائد من مناكبها حتى جيش النمل فوق صخرتي يمسي بقربي دون أن اتبعها. داني الذي تأثر من المشهد كيف أن طائر الشنار الرقيق هاجم الغراب علم أن البقاء على هذه الأرض يحتاج إلى مقاومة فهي الوسيلة الصحيحة لبقاء الوجود حتى في أبسط حاجات الحياة.

فالجوع مُقاوم سلمي ذو أبعاد وتصورات يمتاز بشعارات مختلفة إيجابية وسلبية، فهو سلمي يحاول الانتصار والتغلب على نفسه وضعفه ومشاكله وهمومه فإذا لم ينجح وفشل بسلوكياته السلمية

تحول إلى سلوك سلبي، كلص وسارق متسول في الشوارع والطرقات من البيوت والحوانيت، يخطف كما يخطف الطير ويسلب كما يسلب الطفل أشياءه، ومتهم مطارد من قبل القانون ومريض يموت على الفراش دون طبيب، يتحقق النصر على الجوع بالمقاومة السلمية، لينتصر على عدوه المتخم، فيكون الانتصار على الجوع انتصاراً على العدو، ما أروعك يا طير الشنار! بري بالحب! نعم، اطعمي الحب للغراب وحزني عليه كثيرا، لم يسبق لي أن رأيت دمعة طير فوق التل، أو دمعة حوت عبر المحيط، لكني اذكر جيداً آني رأيت دموع الخيل.

آه يا طيري الصغير! ماذا فعلت مخالبك التي لم تبرز؟ لكن لا تحزن أيها الغراب، فمن المقاومة السلمية ما يقتل أحيانا، فهناك في عالم البحار إحدى القصص التي تشبه قصتك الأسطورية، فعندما كانت حورية البحر تعاني في عالم مختلف وتجد نفسها حزينة ووحيدة فما بين اليابسة والبحر سوى خط وهمي، ولكل مخلوق وطن ينتمي إليه، فأرادت الحورية أن تجد في عالمها مجموعة، وأن تتخذ

منهم صديقاً، إذ كان بين المجموعة حوت يشبهها فانجذبت إليه بالفضول، ذلك الحوت كل يوم يقطع مسافة طويلة بالسباحة، فأرادت الحورية أن تشاركه بالأمر كي تكون برفقته، فعرضت عليه أن يأخذها معه حيث يذهب، عندها سخر الحوت منها وجمع مخلوقات البحر وأخبرهم بالأمر، فلما حضرت قال انتظريني أيتها المخلوقات، عندها لم تجد الحورية ردا مناسباً، ثم حاولت أن تخرج من الموقف، فقالت استطيع السباحة مثلك والتغلب عليك. عندها بادرت مخلوقات البحر بتحديد موعد الانطلاق، وفي اليوم الثاني انطلقت الحورية والحوت في السباق، لكن في منتصف المسافة شعرت الحورية بالتعب، فحاولت جاهدةً أن تستمر، لكنها لم تستطيع، فسقطت في أعماق البحر، فحملها الموج إلى الشاطئ، أما الحوت فواصل السباحة حتى وصل إلى المكان المحدد، وعندما رجع لم يجدها، فبحث عنها في أعماق البحر فظن أنها عادت، لكنه فكر أن يخرج ليلقي نظرة على الشاطئ فوجدها فوق الرمال لا تتنفس، اعتقد بأنها ماتت وعاد أدراجه، ولما وصل

المجموعة اخبرهم بما حدث، لكن ثمة حوت آخر انطلق بسرعة إلى سطح الماء، فوجدها فسحب أطرافها، فلما دخلت الماء عادت لها الحياة، فهي لم تمت، لكنها كانت مرهقة من شدة التعب، فلما وصل بها إلى المجموعة، قال الحوت الأول: لقد اعتقدت بأنها ميتة فتركتها هناك، لكن الحوت الآخر، قال: أنا من أنقذها، وهي تشبهني، فرحت حورية البحر كثيرا بما سمعت، وقالت: يختارنا دوما من يشبهنا ولا نشبهه، فما بين سلمية المقاومة وعنف الحب مسافة فاصلة، بسبب العنصرية والتعصب، نزل داني بحذر شديد من فوق التل، وكانت الشمس قد غربت وحل الظلام، فصوت نعيق البوم فوق غصن الشجرة النادرة لا يبشر بالخير، لقد شعر بالبرد، فالمنطقة الجبلية باردة ومعتمة، فتوجه داني إلى سيارته التي أصبح زجاجها يقطر ببخار الماء ولا يكاد يرى منه شيئا، قام داني بتشغيل السيارة، لكنها لم تعمل، وعندما تأكد من الأمر، قال: يا الهي! لقد نسيت أن أضيف الوقود لقد نفذ.

(21)

ترك داني السيارة في التل، وقال في نفسه لقد مر من هنا قطيع أغنام وسمعت الأجراس، فهي قريبة من هنا، سوف أمشي إليها لعلي أجد عند صاحبها أمراً مفيداً، فدخل على رجلٍ في خربته يتناول طعامه مسكين، قال هل تأذن لي بالجلوس أنا سبط بني حيم قبيلةٌ تملك ذلك الجبل الذي كنت ترعى فيه غنمك؟

قال المسكين: أمسيت في أمان الله وضيفاً كريماً. ما الذي جيء بك من جبل بعيد لا مأوى فيه ولا طعام.

قال داني: يأوي الله برحمته من يشاء، ويطعمه ويسقيه، إني أتيت لأتفقد الشجرة النادرة وأنا صاحبها. فقال الراعي: رأيتها تقف شامخة القدر، وإني على يقين لو اتخذت حولها جداراً فإن الأنعام والأغنام متى سرحت أخذت من أطراف العشب وأوراق الشجر.

قال داني: إن شاء الله، لقد كان شرط من ثلاثة شروط لقوم أفسحت لهم في مجلسي، ووسعت عليهم

مدخلهم من الرزق، فإذا أحسنوا العمل فيها زرعا وأينعت وحملت ثمرا يصبح لهم من أجرهم نصيب، وملَّكتهم الثلث جزاء العمل دون أن أتقاضى منهم أجرا ذهبا أو فضة.

قال الراعي: إن هذا صنيع رجلٍ حكيم، فإذا كان حالهم في ضيق فمن المستحيل أن يأتوا بثمنها في عام ذهبا أو فضة، فمكث بقربه حتى حين، ثم قال داني: إن القوم الذين يتدبرون أمرهم لا يجدون في أنفسهم مستحيلاً، فلكل قوم مستحيل يقدرون عليه

غير قادر عليه الآخر، فالفقير له مستحيل لا يملكه الغني، والغني له مستحيل لا يملكه الفقير.

فتعجب الراعي من قول الحكيم، وقال: أفصح ولا توجز، وفسر ولا تُكثر.

قال داني: الوقف لا يباع ولا يشترى، وكيف نُثمِّن مثل القيمة التي لا تكون مالية، كأن تكون وقفاً او موروثاً دينياً فلا تستطيع التصرف بها او بيعها وشراءها، وهذا مستحيل فثمة إخلاف.

قال الراعي: الاختلاف يكمن في نوعية الطلب، عندها يتبين المستحيل فيه، ثم ضرب مثلاً : قال لو أتى إلى سيد القوم رجلٌ بطلب وهو من عامة الناس، وكان طلبه من سيد القوم أن يخلع حذاءه ويمشي بالأسواق حافي القدمين دون معرفة الناس السبب، فهل يستطيع سيد القوم أن يفعل ما طُلب منه؟ بالرغم من أن الطلب بمنتهى البساطة أن يقوم بهذا العمل، لكن تنفيذ الطلب هذا مستحيل، فقوم سيد القوم سوف يسخرون منه، ويعتقدون بأنه قد أُصيب بالجنون، فيقع المستحيل هنا بتحديد الشخص فيكون بالنسبة لسيد القوم مستحيلاً، لكن هذا الطلب بالنسبة إلى أي رجل من عوام الناس ليس مستحيلا، لكن صاحب الطلب قد يُعاقب على طلبه بصلبه او قطع رأسه؛ لأن سيد القوم قد يعتبر بأن هذا الطلب إهانة له، وعندها سوف يظلم الرجل، فيوجه الرجل القول بالسؤال أن يا سيدي، لماذا تظلمني؟ فيقول سيد القوم: لقد سخرت منا بطلبك، فيرد الرجل: يا سيدي الم تسألني ما عندي؟ فكنت لك مطيعاً فكيف تأمر بقطع رأسي بطاعتي إليك، ولو أن الطلب كان

مغايراً لسيد القوم لاختلف الأمر حينها، إذن الحرية بالطلب فإذا كان الطلب مرفوضاً بسبب العصبية فلا نستطيع أن نملك المعرفة بتحقيق الطلب ولو كان بسيطا، لذلك من اجل تقريب المسافة الفاصلة علينا أن نملك المعرفة، وامتلاك المعرفة تتمثل في القدرة والفروقات بين فريقين: الحاكم والمحكوم الشرط فيها أن تكون متوفرة في الطرف الحاكم، فإذا كانت مستحيلة بالنسبة إليه، فهي غير مستحيلة لدى الفريق الآخر.

قال الرجل الحكيم داني: صدقت.

فقدم الراعي طعامه البسيط، لكن داني دنيال الرجل الحكيم لا رغبة له بالطعام.

قال الراعي: يا بني، لا املك في خربتي وسيلة عون فانظر في صحبك لعلك تجد لك مخرجاً، فحاول الرجل الحكيم الاتصال بأصدقائه ومكث عند الراعي حتى يحضر إليه احد لمساعدته، والراعي يأنس بضيفه ، وقد أخبر داني بقصته التي حدث معه في

شبابه قال الراعي: كنا ثلاثة رجال نطلب العلم. تغربنا عن وطننا وأهلنا بغية طلب العلم فتركنا كل شيء خلفنا وسافرنا إلى قرية صغيرة في العراق، وبما أننا من نفس الوطن قررنا وشيخنا واحد، قررنا استجار غرفة نمكث بها حتى ننتهي من الدراسة، ولم يكن بحوزتنا إلا القليل من المال، فتلقينا على يد شيخنا الفاضل أصول الحديث وعلوم القرآن، وأنت تعرف يا بني، فلكل قوم شريعة ورسول.

قال داني: صدقت، وأرجو أن تكمل فكلي آذان صاغية إليك وأعي ما تقول.

فقال الراعي: وبعد ثلاث أعوام أوشكنا على نهاية الدراسة، فلما انتهينا رجعنا إلى الوطن، وذهب كل عالم منا إلى قريته، فنحن ثلاثة علماء وثلاث قرى، وبعد أن بدأنا بتعليم القرى خرج من القرى كل قوم يختلفون عن بعضهم في العلم عن الآخر، فأرسلنا إلى شيخنا الفاضل وطلبنا منه أن يجمعنا إليه حتى يتبين لنا هذه الظاهرة، فلما تحاورنا في الأمر وبحثنا الخلل، وجدنا أن كان زميلي الشيخ الأول يلقن الطلبة

الدروس في بيته، وأما زميلي الشيخ الثاني فكان يُسافر ويعود وما بين سفره وعودته يعطي الحلقات، أما أنا فكنت اجتهد وابحث وبحسب اجتهادي وبحثي أضيف ما أجده يتوافق مع المادة، قال الشيخ استأذنا الفاضل الذي علمنا: فأما الأول فكان لساني، وأما الثاني فكان لساني وعيني، وأما الثالث، فكان لساني وعيني وسمعي، أدراك داني مغزى قصة الراعي واستمتع كثيراً بما روى له وعلّق ببعض النقاط، فقال: هذا يرجع إلى العالم. فثمة علماء يتكيفون مع أسلوبهم الخاص، فينقلون بأسلوب وطابع يتميز ويتفرد بهم بالرغم من المحافظة او عدم المحافظة على الثوابت، فالصنف الأول من العلماء يخرجون عن الإطار المحدد للنقل ويتوسعون كثيرا مع ما ينقلون، فينقلونها للناس في وعاء واسع وفكر عميق تشق على المتلقي، وتكون أوسع من مفاهيمه، وتحتاج المقولة حينها لتبسيطها وشرحها، بالإضافة إلى الزمن، أي الوقت الذي تحتاجه، فقد يجعلها قصة مملة لطولها، والصنف الثاني من العلماء ينقلون المقولة او الحديث بوعاء ضيق وفي وقت

قصير ، علما أنها تحتاج إلى شرح وتفسير للتوضيح، والصنف الثالث من العلماء ينقلون الحديث بطريقة صحيحة وبقراءة واضحة قريبه من المتلقي، وتصبح مفهومة بالنسبة إليه وفي وقت كافٍ ملائم، فيرجع الأمر إلى نوعية العالم. فلما أنتصف الليل ولم يأتِ احد، قال الراعي: يا بني،لا تخرج من هذا المكان حتى الصباح، لك مكاني وفراشي حتى يأذن الله بالفجر ، فإن الليل عابس، والبرد قارص، والظلام دامس، والخوف جالس، والثمن باخس، والوقتُ جساس، والشجر راقص، والطيفُ لامس، وتوكل على الله، فالراعي مسئول، والقول مأثور ، والنوم مثول، والجدل مخذول، ومسح بيده فوق الفراش كي ينام الحكيم، وبسط لنفسه رداء رقيق وجعل كفه تحت ما بين شحمة أذنه وخده، وضم ركبتيه إلى صدره، ويمينه فوق الأرض ونام، أما داني، فجعل ساعديه حلقة تحت رأسه، وبسط جسده على ظهره، ليراقب لوحة السماء، فلما تعبت عيناه وحاول أن يغمض جفنيه رأى فجاً من النور ، والكواكب والنجوم، قال: ربي إن أغمضت عينيَ تفجّ، وإن

فتحتها حولي تدور، والصوت حلقات تعبر من أخص قدمي وتتسع حتى ترتفع فتتسع حتى تصل السماء، فلما بزغ الفجر سمع هاتفا يقول: قُم، فلما خرج من الخربة وقف يسمع صوت المنادي وهو تحت السماء يرفع رأسه، وينظر إليها وحوله الجبال والصخور، فعبرت الحلقات من أسفل قدميه وتوسعت حتى ارتفعت إلى السماء وهو في مكانه لا يتحرك، وهي من حوله تدور، عندها استيقظ الراعي للصلاة فلما جاء بدلو الماء، أخذه داني من يده؛ ليصب عليه الماء وهو يتوضأ، فلما صب الماء على يديه تبين للحكيم صحة النية، وإبعاد الشك، فرأى صب الماء صبا لإعداد المائدة، وقد قام لذلك، ولما أكمل الراعي بمضمضة الفم ثلاث مرات تبين للحكيم لفظ قول غير مراقب، وأكل لحم لا يمضغ، فبصقه، ولما تابع فاستنشق ونثر ثلاثا، تبين للحكيم سعة صدره وعفوه وحلمه، فلما جعل الماء على وجهه تبين للحكيم زيف وجه السوء وحقيقة الوجه الحسن، فلما أتّم بالمرفق حتى منتصف الذراع تبين للحكيم تماسك الدولة بقوة، ولما أكمل المسح على رأسه

تبين للحكيم كفل اليتيم، فلما انتهى بغسل القدمين حتى الكعبين وزاد على ذلك تبين للحكيم عموم التابعين ورفعتهم دون ارتفاع برشوة وانخفاض، وظهرت خطوات السعي وشهدت الساق، فلما انتهى شكر الراعي للحكيم صنعه.

وقال: اذهب يا بني، ولا ترفع الجدار إلا بالحجر الصحيح، فإن اللوح محفوظ، فصناعة الإيمان بضاعة لا غش فيها ولا تزوير بالعمل هي أحب العمل إلى الله، وهي الإخلاص، ومرآة المؤمن قلبه، فكم من عجلة لا تصلح دون سنن، تتداخل فتدور مسننة في فراغ لتلتحم، والحكمة ما بين السنن والفراغ تمنع الاحتكاك، ليكتمل الدوران لتصبح الدائرة مكتملة، تأثر الحكيم بتلك الكلمات التامات في ليلةٍ قد أستمع فيها إلى جملة من الأحاديث، وبعض القصص التي شرحت قلبه، وبسطت كفّة يده، وهيأت بصره، وعصفت ذهنه، وناشدت فكره، وهيّأت أمره، ليكون له منه رشدا، فالغشاوة بالعين عيب بالقلب، لا خلقي ولا وراثي بل سلوك، وما تأثر به سمعه من القصص أوصله الراعي للحكيم

إلى حجر الأساس، كما هي الجذور في الشجرة من خلال ما قصّ عليه بالمواصفة، فعلم أَن من كان يحيا حياة المسئِول عن سمعه وبصره ولم يلقيها كشف الله له من علمه ما يشاء، وفتح له من النوافذ نافذة، إن في صب الماء إحياء للنفس والأرض بعد موتها، وعملية الإحياء هي مفهوم الخشية، وخاصةً بالقول كذلك العمل، لكن القول أشد سرعة للوصول، والتفضيل يرجع إلى الحركة، مثل الاستيعاب، يستطيع الإنسان أن يحفظ جزءاً من الكتاب في اليوم لكنه لا يستطيع أن ينجزه عملاً.

لذلك للحديث رقيبٌ عتيد، لما يترك في نفوس البشر من تأثير، لقد جمع الرجل الحكيم من الراعي العديد من المسائل، وهو في طريقه إلى وسيلته التي تعطلت، وكل ما شاهده في آخر لقائه سقف الخربة التي لا يمكن أن تصمد أمام الرياح والمطر عندما يُصب، فهي من سعف النخيل، ولا تصمد إلا بقدرة عظيم.

(22)

خرج الرجل الحكيم من قرب السلسلة المرصوفة، وكان قد رصفها الراعي مكان عقد المسبحة، وهو يعمل ويسبِّح، ها هي الشمس تلوح بيدها من بين الجبال المحيطة بتلك الخربة، يتنفس الصباح، وتزفر الريح، يتأرجح الحكيم أمام دفع يد الريح القوية، ويقاوم للوصول إلى الوسيلة التي تعيده إلى منزله، مشى في وعر الأرض يغرس بقدميه بالتراب، يثبت توازنه أمام يد الريح التي تدفع بقوة، حتى وصل هناك، عندها يكاد يلتقط أنفاسه، فتح باب الوسيلة وجلس، فقال: يا ربي، كل ما سخرت إلينا من اجلنا قد لا نستطيع التغلب عليه، ولا يوجد سوى رحمتك التي تدفع عنا ما تريد، جلس في زاوية الوسيلة يتفكر، كيف يخرج من أزمته هذه، فقال: ليت الله يعينني على هذا الأمر.

إذا كان المطر انحباس

والأموال اختلاس

فالشبهة التباس

والشيطان وسواس

والأرض يباس

والحجر انبجاس

والرجز انغماس

والإعجاز كيف له اقتباس؟

ولا شيء حولي يخفف عني معاناتي سوى الهروب إلى صفحة آنس فيها بالذكر الحكيم، وأتلو من آيات الكريم البيِّنات، فوقع على سمعه بعض ما جاء من قول العجوز:

يا بني، ألم تعلم بعد قصة أيام الأسبوع؟ وهل سبق لأحد أن بلغك إياها من العالمين؟ يجري العمل على قدم وساق، فالقدم ثابت، والحجارة من طين

لا غرابة بين الحجارة قد نجد معدن

خلقت الأرض ومن المنافع الحديد

obeikandl.com

من حب الدنيا حملت ببطنها سواسية

وولدت فوق الثرى ملوك وعبيد

مكرت وعلمت كيف تفتن، دهنت وندهن، فالحكم قائد، ٍوالتسمية عقيد علينا، والدنيا حرمنا طلاقها أشفقنا على صغار الذنوب، فمن يأتي بالثريد؟ ملكنا الوسائل كي نُسافر، فلما أسفرت عن قولنا هربنا إلى الزمن البعيد؛ لتطور العلم قد امتثلنا، والكبش تهجّن. والنعجة أصبحت بخلق جديد.

إنْ أحسنَ المبدع فخدش شريانه، فالتاج شريان يغذي الوريد.

ولما عرفنا البيت مكانته صار البيت إلى عنوان بعيد، سُرقت عروبتي. وجنينُها القصص. بمجموعةِ أفكار صدمتني أمتي، بحملي فتسببت بنزف شديد، فحملتُ على أغصاني كل حجر مني سقط ورفعته فوق أغصاني، وجمعتُ كل حبة تراب أخذت من بطني حفروها من جسدي فحملي جديد قبّل جبين الصبح مني أني الصبح في كل جبين.

وأقرأ على مسمعك وبصرك من آياتي أني أنا الذكر الحكيم. فإذ برئ فؤادك، وطَهُر لسانك بذكري اجعلني شاهدا يوم العالمين.

اسرق مني كلمة.

اسرق من حرف.

وزّع كل أدواري.

استبدلني بالصمت.

تجاهلني مئة عام بل تجاهلني ألف سنه.

يكفي أن تشهد لي بالخوف.

هذا بياني وعاملهم بالبيان إن استطعت

استدعهم، وقل ربي قد عدلت.

obeikandl.com

(23)

ونعود لموضوع داني ورفقة، فعندما يفقد الإنسان جهات الاتصال والتفكير الصحيح، ويجد المرء نفسه وحيداً في منطقة معزولة.عندها لا يجد إلا صوت المعلم، فبعد أن التقى الرجل الراعي ودار بينهما الحديث، استنتج داني بعد استماعه للقصص منه أن يعيد النظر في الفرضية التي افترضتها رفقة بعدم التسرع في الرد، حتى يبحث جيداً عن الإجابات الصحيحة بعد أن يعيد البحث عن أصحاب هذه الأرض المقدسة، ليتأكد من صحة الأسماء، فلكل رجل حكيم أسلوب مختلف, ولو تتلمذ على يد حكيم. وفي هذا الوقت الذي يقطع فيه الطريق الوعر عائدا إلى الوسيلة او المركبة حتى يجعل الله له مخرجاً من أزمته التي علق بها, صار يؤنس وحدته بفتح صفحات من ملف الذكريات، فعندما يقطع المرء مسافة دون وسائل اتصال او يفقد الاتصال بمن حوله، تبقى متوفرة لديه وسيلة واحده لا تحتاج إلى حملها في حقيبة ولا يمكن نسيانها كما ينسى بقية الأشياء والأغراض, وهي صوت المعلم.

هكذا عاش داني هذه الساعات الطويلة والمقلقة، عاش مع حديث الرجل العجوز عندما حدّثه عن المعضلة، داني يمر بمثل هذه المعضلة, مع رفقة. فوجد نفسه يقول في نفسه, قد تبحثُ عني رفقة إذا ما قهرها الغياب، ويكتب لها رسالة:

أصغِ يا حبيبتي، إلى صوت السماء, إلى خرير الماء, إلى هديل الحمام. ولا تنسي صمت الليل الحزين دوني, لا اعرف كيف التمس لك العذر بعد طول الصبر والمعاناة, لن أقول القدر مكتوب وسبقني ورتب الصفحات لمستقبلنا، معضلة يا حبيبتي، إذا انتقينا حلاً بالمقارنة، فعندما نملك مشاعرنا الصادقة تختفي المقارنة، وتفشل أمام شخصينا وتتحول إلى مراوغة, في دائرتنا المقنعة قد يتطور صراع بداخلنا يحمل مفهومين, المفهوم الأول: أننا انتقينا أن نكون رفقاء بالقناعة, اقتنع كل شخص منا بالآخر، فكلانا مثابر ولم يكن تعاملنا بالتركيز على المشاعر اتجاه أنفسنا، فشاركنا من حولنا، فأصبحوا معنا، وكأن العالم صديق لنا، يطرح قضاياه عبر قضيتنا الصغيرة, لقد أرفقنا بأنفسنا وكانت الحياة وكأنها

obeikandi.com

تستجيب دون توقف الأحداث. والمفهوم الآخر للمعضلة: الصبر فلا ينجح كحل من الحلول إذا لم نتحلَّ به, بحثنا دوما عن الأفضل، وتمكنا من عدم الطواف حول دائرتنا، وتحمَّلنا الجزء الأكبر من المسؤولية، ومضينا معا دون أن ينفذ الوقت بحل غير مجدٍ, لم نبعد أي جزء من الصورة، لم نفصل أي شخص من المجموعة، استطعنا أن نحافظ على التوازن العام والخاص دون أن نخسر شيئا مما نملك، او نتنازل عن عمل صعب, او نتعامل بأسلوب الربح والخسارة.

oberkandl.com

(24)

داني الذي أصبح حكيماً يعلم بأن رفقة سوف تبحث عنه في مكانه أي في التل, فالطريقة موضوعة ويتخللها الاتصال وأنه يقيم هناك, فحديث داني لرفقة مدة سنوات عن الرجل العجوز في كل لقاء كان يشوقها. وها هو اليوم سيتحدّث إليها ويكتب لها وفيها:

يناديكَ قلبي من بعيد، أن تعالي إليَّ احضُنيني يحمل صدرك خفقان قلبي, هنا مكاني كما تعرفينه. تُحلق روحك فوق سمائي، تعلمين جرحي جُرح برد، وجرح بردي من جرح ضياعي، دعيني أشعر حيا أم ميتاً، وامنحيني كل حبك، فالحب عندي معنى لاسمك، واسمك عندي بالمعنى شيء كبير، عقاب الهجر موت، أما سمعتِ أن القتل عشق؟ رفقة تقرأ الرسالة بعد أن وصلتها، فالظرف مفتوح والصوت مجروح، والقلب مذبوح بكلمات العتاب. تقرأ الخبر, وتسمع الأنين, ولقد اختفى القمر بين الغيم الحزين, تأثرت, تألمت, تأرجحت, تمالكت.

وصلت الرسالة لرفقة وترددت في الأمر، أتُحدث المجموعة عن الرسالة أم تخفيها في سرها لتقوم بالبطولة وتنقذ حبيبها؟ نظرت إلى الساعة فإذا هي الخامسة مساء, حيث وقت المحاضرة لمجموعة الأذكياء، فقالت في نفسها: ساعدني يا الهي، قد يكون داني في خطر ولا ينبغي أن انتظر.

وتصرخ رفقة منادية يعقوب، ويسألها: ماذا تريدين يا رفقة؟

– أريد أن أكلمك على انفراد.

– تفضلي وتكلمي.

– أرجوك قم بمهمتي, وأعط محاضرتي حتى أعود، لم تفصح رفقة لم تخبر يعقوب عن أسباب غيابها وانتدابها ليعقوب كي يحلّ محلها، وقالت له: خذ مكاني وتحدث بلساني حتى أعود وإن تأخرت فلا تنتظروني. فهي لا تعرف ماذا تقول. ثم ذهبت صوب داني.

عاد يعقوب إلى المجموعة، وصفق بيديه لينتبه

obeikandl.com

الجميع، وتكون كلمته مسموعة, قائلا لهم:

الرجاء الهدوء، أرجوكم اعذروني فلم يسبق يوماً أن وقفت في مكان رفقة او تحدثت بلسانها، فالمحاضر لا يغامر، وستكون أمسيتنا حديث المغامرات, في البداية سوف أحدثكم عن نفسي، فبعد خمس سنوات من زواجي حملت زوجتي وكنا ننتظر المولود بفارغ الصبر، وعندما أصبح حملها خمسة شهور ذهبنا إلى الطبيب كي تفحص الجنين بجهاز الالترساوند، عندها قال الطبيب أبشركما بطفلة جميلة تشبه أمها، فرحنا بالخبر كثيرا، وناولنا الصور وأصبحنا كل ليلة نشاهدها, ثم أخذت أغازل زوجتي واصفا عينيها بالزرقاوين، وبشعرها الذهبي وبابتسامتها الجميلة. وفرشنا غرفة الطفلة بفراش ملون، ألوانه وردية، وجهزنا ملابس الصغيرة بأحلام جورية. وعندما حان موعد الولادة ذهبنا إلى المشفى ووضعت زوجتي الطفل صاحت الممرضة: ولد، ولد، مبارك ومبارك، وحمدت الله أنه ولد، فكل ما حدَّثت به زوجتي كان كذباً، فهي ليست جميله وأنا أجمل منها بكثير.

ومن الملاحظ أن يعقوب لم يحلّ محل رفقة، فقد تجاهل طلبها وأخذ يتحدَّث عن نفسه وليس عن أمور تخصّ المجموعة، فهو يجهل النقل او التحدث بقول صحيح, فخشي إن لم يرتب حزمة الحطب قبل نقلها فمن المؤكد أن تسقط نصف الأعواد منها او أكثر، وإذا نقل الحديث بطريقة الإخبار دون معرفة فكأنه يخلق حالة من الهلع والارتباك، وإذا تحدث وكان في الأسلوب شدة, فقد يُصعِّد فتُشحن المجموعة بالكراهية والغضب, وإذا أستخدم أسلوب اللين فقد ينسى جزءاً من المعلومات, وإذا استبدل الأخبار بالإعلام فقد يُتهم بأنه يروِّج لنفسه, فعدم الخبرة يفسد الفكرة, فإن أهم عامل حاسم حين وقوع المفاجأة هو العامل النفسي للمتلقي وأغلب الأخطاء التي تتكرر في النقل. تتمثل في عدم الاهتمام بالحدث ونسيان المتلقي. والطريقة الصحيحة التي يجب التركيز عليها عند وقوع الأحداث والمفاجأة أن يكون البديل الناقل صاحب معرفة، ويملك المعلومات الصحيحة، ويحدد الإطار الذي سيتحدث عنه، فإذا توفرت أسباب الظرف او الحدث, فمن المهم أن نذكرها

بجميع التفاصيل وهذا يخفف من حدة الكارثة، وألا ينقل الحديث إلا بأسلوب التدرج, فأهم لحظة للحل وإدراك ما يحدث هو إيجاد حل للإنقاذ، فلا يخلو ظرف من بشر او شجر او حفر.

وعلى الرئيس تقع مهمة تحديد الزمان والمكان، وتدوين الحدث فور وقوعه, لذلك لم يجد يعقوب نفسه الشخص البديل الملائم ليكون في مكان رفقة, ويتحدث بلسانها فحوّل المحاضرة إلى مغامرة حتى لا يكون مكانها مؤامرة، فأخرج المجموعة من حالة القلق والتساؤل واستبدل المحاضرة بشيء مغاير يُساعد المجموعة في حالتها وينقلها من نفسية قلقة ومرتبكة, إلى نفسية فيها شيء آخر من المرح, واستطاع أن يجذب المجموعة لشيء مهم آخر في الحديث عن المواقف الطريفة، والأحداث العفوية، فبعد أن انتهى يعقوب بالتحدث عن نفسه. رفع موسى يده للمشاركة في الحديث، فقال: عندما كنت صغيراً وأذهب إلى المدرسة، طلبت مني زوجة أبي أن احضر معي بعد عودتي بعض العشب من اجل أرانب أختي الصغيرة، فالأطفال عادة يرغبون كثيراً

باقتناء الحيوانات الأليفة في المنزل، وبعد انتهاء الدوام حين عودتي للمنزل وجدت مجموعة حقائب مدرسية على الأرض، وإذا بأولاد يلعبون, فوقفت مده ارقب اللعب، عندها جاء إليّ ولد وطلب مني أن ألعب معهم فوافقت, فقال احدهم بما أنك جديد فهو دورك الآن وعلينا تغميض عينيك، فنحن نلعب لعبة الغميضة, فعصّب عينيّ بشريط وبدأ العدّ، أتفق الأولاد فيما بينهم الرجوع إلى البيت وتركي ابحث. فمشيت ومشيت، ثم تعثرت في حفرة فانكسرت ساقي، فلما رفعت الشريط، تفاجأت بأنني لم أجد أحدا من الأولاد حولي، فصرخت: النجدة، النجدة، فجاء إليّ رجل وحملني إلى المنزل، عندها كانت زوجة أبي بانتظاري, ولم تسأل عما حدث. لكنها سألت عن العشب، فقلتُ لها: لقد نسيته، فقالت: تستحق كسر ساقك، فإذا كان النسيان نعمة فالتذكير كسر.

(25)

رفقة ارتكبت خطأ بعدم إخبار المجموعة والتشاور معهم عند سفرها لداني, فهي قائدة للمجموعة، وهي التي تُجهز الفعاليات كل يوم، وفي المساء تعطي المحاضرات لاستكمال العمل نظريا وعلمياً, وبالرغم من معرفتها جيداً بشخصية داني, فهو يعطي جل اهتمامه للأرض ويقضي اغلب وقته هناك, رفقة بمجرد أن حدَّثها شعورها الصادق بداني, عند ها قادتها العاطفة وتملّكتها، ومن الصعب أن يتوافر للقائد وقت لبعض الخصوصيات, لم تفكر رفقة بالطريق والمسافة الطويلة، لم تتوقع كيف وماذا ينتظرها في الطريق, لم يتوفر لرفقة فرصة لزيارة الأرض من قبل، لكنها ركبت السيارة ومضت ولا شيء يشغل تفكيرها سوى داني، قطعت رفقة مسافة ساعتين الطريق المعبد, ووصلت إلى الطريق الوعر, والجو تختلف حالته من مكان إلى آخر، فحالة الجو في المنطقة الجبلية أكثر برودة، والضباب هناك ينتشر كالدخان، وأخذ يتجمع حول المركبة وأصبحت لا تكاد أن ترى أمامها, فتحت رفقة نوافذ السيارة،

لتستكشف الطريق بشكل أفضل, فرأت نوراً خافتاً من بعيد، استمرت بالتقدم نحوه, لكنه لا يبدو ضوء مركبة، فلما وصلت فإذا هي خربة, فنزلت ودخلت الخربة فإذا بالراعي يجلس في خربته، فقالت له: هل رأيت رجلاً هنا؟

قال الراعي: رأيته، لكن لن أجيبك, فقالت: ولماذا يا رجل؟

قال: هي خربة، وأنا بشر وينبغي أن نسلم على بعضنا ونتعارف أولاً، تفضلي واجلسي. فجلست, وقال: اعرف أن الوقت متأخر، والوضع سيئ ولن أطيل الحديث, فأنت تبحثين عن الرجل الحكيم. فقالت نعم.

قال: اذهبي إليه هو بنفس الطريق يجلس بالوسيلة، وهو بخير.

قالت: وما أدراك؟

قال: لو أراد الرجوع إلى منزله لبحث عن مخرج, لكنه يجلس هنا لغاية في نفسه، عندها شعرت رفقة بالخوف وبكت، فقال الراعي: نعم، هو بانتظارك.

obeikandl.com

الخاتمة

كل جديد يحتاج إلى تجارب متنوعة ومختلفة بحسب ما يتطلبه الواقع، والعديد من الفرضيات والوسائل تتعامل مع الظرف والزمان والمكان بحسب الواقع، فهي تحتاج إلى الثقة والمصداقية والقبول، فلا يستطيع الأفراد الوصول إلى فهم صحيح لقصة كقصة داني، التي جعلت البعض يتساءل تحت اثر الصدمة والهذيان ولم يفهم المغزى والرسالة الصحيحة لها، والهدف منها أن الذي لا يملك أصبح مالكا بماله (بفرنك) وبطلها داني نفسه وهو صاحب الفكرة، قد لا يستطيع صاحبها توضيح مراده وأهدافه، يُساعدها للوصول إلى أرض الواقع وتثبيتها بشكل صحيح، فيحفظ خططها وأهدافها في نفسه، وأن يشتغل عليها بكل ما أمكن حتى يحصل على الهدف والنهاية الصحيحة السليمة، ولصاحب الفكرة الخيار بأنه إذا لم يجد لها حياة مع من يهتم بتلك الأفكار، يستطيع المفكر أن يبيعها ويستفيد منها ولا يفني أفكاره ويضيع وقته في عمل لا يجدي نفعا.

ففكرة التغير لو قامت صاحبتها ببيعها لحصلت على مبلغ كبير جدا من المال، إلى جانب الاهتمام بتقديم المزيد، لكنها أرادت أن تقدم هذا العلم والعقل لأمتها العربية، من اجل النهضة والرفعة والتقدم والازدهار،

فعندما يتحقق الإنسان من صدق نيته وإخلاصه وأمانته يتعامل بجدية وحذر، ويتابع بدقة تنفيذ خطواته على الساحة، ويوجهها الوجهة السليمة، ويتمعن في الطريقة التي تجري فيها الأمور، ثم يواصل من خلال المتابعة العمل على الأرض التي يقف فوقها بثبات، ويعمل على تطوير الصفحات من خلال المتابعة على ارض الواقع، وهذا يحتاج إلى إيمان قوي وعزيمة.

أما الفكرة كفكرة التغير، فقد نجحت بقوة برغم ما تعرضت له المرحلة الأولى لتخرج من قلب الأزمات بتحقيق أهداف الشعوب، فيتطلب منا التضحية، كذلك المراحل التي سوف نقطعها مختلفة من دولة إلى دولة أخرى، بحسب النظام القائم فيها، ووسائل تحقيق الفكرة تختلف في كل بلد أو دولة يرغب

شعبها أن يتحرر من ظلم الأنظمة الضالة، التي أدت إلى تحطيم عالمنا العربي والنكوص والتراجع الذي ألمّ بهذه الأمة، والتي أصبحت في حالة ضياع وتقطيع أوصالها، وخسف أموالها، وتشرد أهلها، وبعثرة حقوقها، فكان الهدف من كتابة الفكرة والعمل فيها من اجل تأمين وازدهار الشعوب وحمل الرسالة. وإعادة ما فقده المسلمون من كرامتهم، وهدر حقوقهم حتى لا يتكرر التخاذل، والإهمال وإقصاء الطبقة الضعيفة، واستغلال شخصية الإنسان كإنسان مكرّم، وتحويله إلى إنسان مذلول من اجل لقمة العيش والتجارة بالعمارة وإقصاء العقول. فلا أبحاث علمية ولا أفكار عربية ولا تجارب للعلماء. بل هجر الدين والتحايل على الإسلام والمسلمين وإذلالهم.

تمّ والحمد لله

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com